قبسات

مِنَ البيانِ القرآنيّ



الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير

قَبَسَاتٌ

مِنَ ٱلبَيَانِ ٱلقُرْآنِيِّ

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: قبسات من البيان القرآني
التأليف: الدكتور فاضل السامرائي

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ISBN 978-614-415-265-2



● الطباعة: راما برس - بيروت - التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

● الورق: أبيض - ألوان الطباعة: لونان - التجليد: كرتونيه

● القياس: 17×24 - عدد الصفحات: 296 - الوزن: 560 غ

دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس: 817857 01 - جوال: 204459 03

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

قبسات

مِنَ البيانِ القرآني

تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[ص: ٢٩]

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

هذا كتاب آخر في شيء من البيان القرآني الذي لا تنقضي عجائبه .

وهو على نمط ما كتبته في قسم من السور والآيات القرآنية المباركة ، حاولت فيه أن أبين جانباً من الأمور البيانية في اختيارات من آي القرآن وسوره ، لعل الله ينفع به طالب علم ، أو ناظراً في كتاب الله ، أو متأملاً في آيه ، فيفتح قلباً مقفلاً ، أو ينير مصباحاً في طريقه ، فتنالنا منه دعوة مباركة ترجح كفة الميزان عنده سبحانه ، وتحفظنا من الزلل عند الصراط .

والله المستعان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د. فاضل صالح السامرائي

من سورة البقرة

آيات الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ
سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن
تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ
وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا
دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٦].

وقعت آيات الصوم بين آيات الشدة وذكر الصبر وما يقتضي الصبر:

فقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] بالقطع، والصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان.

وتقدمها أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ [الآية: ١٧٨].

وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وجاء بعدها آيات القتال، وهي قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ . . . وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ . . . وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].

ذلك أن كلاً من الصوم والقتال من المشاقّ، وأن كلاً منهما يقتضي الصبر.

ثم ذكر بعدها آيات الحج؛ لأن الحج بعد الصيام، وبعد شهر رمضان.

قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ . . . ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٦ ـ ١٩٧].

ويستمر في ذلك.

وذكر المريض في الحج، كما ذكر المريض في الصيام وذكر فديته، ومن الفدية فيه الصيام، فقال: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

جاء في (البحر المحيط): «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

ٱلصِّيَامُ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه أخبر تعالى أولاً بكتب القصاص ، وهو إتلاف النفوس ، وهو من أشق التكاليف ، فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل .

ثم أخبر ثانياً بكتب الوصية ، وهو إخراج المال الذي هو عديل الروح .

ثم انتقل ثالثاً إلى كتب الصيام ، وهو منهك للبدن ، مضعف له ، مانع وقاطع ما ألفه الإنسان من الغذاء بالنهار .

فابتدأ بالأشق ، ثم بالأشق بعده ، ثم بالشاق. فهذا انتقال فيما كتبه الله على عباده في هذه الآية .

وكان فيما قبل ذلك قد ذكر أركان الإسلام ثلاثة : الإيمان والصلاة والزكاة ، فأتى بهذا الركن الرابع وهو الصوم»[(١)] .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

* * *

١ ـ ناداهم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولم يقل : (قل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) .

لأنه سبحانه ناداهم مباشرة لا بالواسطة ؛ لأهمية ما ناداهم إليه .

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٨ .

٢ ـ وقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ ، واستعمال الفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ مع عليكم فيه شدة وإلزام ومشقة ، وما يجب عليهم ، وما يستكره من الأمور بخلاف (كُتب لكم).

فمن معاني (كتب) ألزم وأوجب وفرض.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ... ﴾ [الحشر: ٣].

بخلاف قوله: (كتب لكم) فإن فيه ما هو خير لهم ، أوليس بمنزلة (كتب عليكم) وذلك نحو قوله:

﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقوله: ﴿ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧].

وقوله: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقوله: ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٣ ـ وقال: (كُتب) بالبناء للمجهول ، لأن فيه مشقة ، بخلاف ما فيه اليسر والرحمة ، فإنه يسنده إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٢١].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقوله: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

جاء في (البحر المحيط): «وبناء (كتب) للمفعول في هذه المكتوبات الثلاثة وحذف الفاعل للعلم به، إذ هو الله تعالى، لأنها مشاق صعبة على المكلف، فناسب أن لا تنسب إلى الله تعالى، وإن كان الله تعالى هو الذي كتبها. وحين يكون المكتوب للمكلف فيه راحة واستبشار يبني الفعل للفاعل، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ و ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾.

وهذا من لطيف علم البيان.

وأما بناء الفعل للفاعل في قوله: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾ فمناسب لاستعصاء اليهود، وكثرة مخالفاتهم لأنبيائهم، بخلاف هذه الأمة المحمدية.

ففرق بين الخطابين لافتراق المخاطبين»[١].

---

(١) البحر المحيط ٢/٢٨.

٤ ـ قال: (الصيام) ولم يقل: (الصوم) ذلك أنه لم يستعمل للعبادة المعروفة إلا الصيام.

٥ ـ وقال: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ وهذا مما يدل على علو هذه العبادة وعظم شأنها، وعلى الترغيب في هذه العبادة، ولأن المشاق إذا عمت هانت(١).

٦ ـ ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ أي: تتقون المحرمات، وتحذرون المعاصي، لأن الصوم يكسر الشهوة ويهذبها. قال ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**.

ولعلكم تتقون المفطرات والإخلال بأدائه.

ولتصلوا إلى منزلة التقوى(٢).

وقد أطلق الفعل ليشمل كل ذلك.

وقد تكرر ذكر التقوى والمتقين في سياق هذه الآيات:

فقد قال: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢٣٩.
(٢) انظر: روح المعاني ٢/ ٥٧.

لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠] .

وقال في آية الصوم هذه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وقال في آية الصوم التي تلي هذه الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وقال بعد ذلك: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] .

وغير ذلك .

وهي مناسبة لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] .

وقد ورد لفظ التقوى ومشتقاتها في سورة البقرة (٣٦) ستاً وثلاثين مرة .

* * *

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

* * *

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ .

قال: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ولم يقل: (معدودة) تقليلاً لها، ولتهوينها على الصائم .

وقيل: لأنه كان كذلك. فقد كان ثلاثة أيام في كل شهر، ثم نسخ ذلك

بصوم شهر رمضان[١]. وقيل غير ذلك.

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾.

قال: ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ولم يقل: (مسافراً) ليعم من اشتغل بالسفر، قيل: لأنه أباح للمتهيئ للسفر والمستعدّ له الإفطار.

قيل: بأن انشغل به قبل الفجر.

والبتّ في الحكم يعود إلى الفقهاء[٢].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾.

قيل: (على المطيقين للصيام إن أفطروا فدية)، وكان ذلك في بدء الإسلام، لما أنه قد فرض عليهم الصوم، وما كانوا متعودين له، فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية.

«وفي البخاري أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ كان من شاء منا صام، ومن شاء أفطر ويفتدي. فعل ذلك حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾».

وقيل: إن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم والعجوز الكبيرة الهرمة، وقد فسرت الآية على هذا بـ(يصومونه جهدهم وطاقتهم) فيصير المعنى: وعلى الذين يصومونه مع الشدة والمشقة، فيشمل الحبلى والمرضع أيضاً.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢١٣.

(٢) انظر: البحر المحيط ٢//٣٢، نيل الأوطار ٤/٢٤٢ (حديث أنس بن مالك).

وجاز أن تكون الهمزة للسلب ، كأنه سلب طاقته بأن كلف نفسه المجهود ، فسلب طاقته عند تمامه[١] .

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ :

بأن زاد على القدر المذكور ، أو زاد على عدد من يلزمه إطعامه ، فيطعم مسكينين فصاعداً ، أو جمع بين الإطعام والصوم[٢] .

﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ :

أيها المطيقون الأصحاء ، أو المرخصون في الإفطار .

وقال : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب[٣] ، ولم يقل : (وأن يصوموا خير لهم) لئلا يخص المرضى والمسافرين والمرخصين .

* * *

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ

---

(١) روح المعاني ٢/ ٥٩ .
(٢) روح المعاني٢/ ٥٩ ، فتح القدير ١/ ١٥٨ .
(٣) انظر : روح المعاني ٢/ ٥٩ .

وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾.

ذكر الفريضة أولاً وهو قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

ثم ذكر الأيام مبهمة فقال: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ فزال بعض الإبهام.

ثم بينه بقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾، وعظمه بقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾.

﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾.

أي: ابتدئ فيه إنزاله وذلك ليلة القدر، وقد أنزل جملة إلى السماء الدنيا، ثم أنزل منجماً إلى الأرض[١].

وأنزل في شأنه القرآن[٢] وهو قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ كما أنزل في شأن ليلة القدر، ولم يذكر غيره من الشهور في القرآن الكريم.

والمعنيان مرادان.

وقال: ﴿ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ولم يقل: (أنزلنا فيه القرآن) لأن

---

(١) انظر: روح المعاني ٢/ ٦١، الكشاف ١/ ٢٥٦.

(٢) فتح القدير ١/ ١٥٩.

الكلام على الشهر لا على مُنزله ، ولو قال : (أنزلنا) لكان الكلام على الله سبحانه .

وهذا تعظيم لهذا الشهر .

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ .

أي : هادياً للناس على الحال .

أو لهداية الناس على المفعول له .

﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ أي : أنزل آيات بينات واضحات الدلالة .

﴿ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ الفارق بين الحق والباطل .

فهو أنزل آيات بينات ، و﴿ مِّنَ ﴾ للبيان ، فهي ـ أي : الآيات ـ بينات من الهدى ، وما يفرق بين الحق والباطل بما فيه من الأحكام .

فهو يبين الهدى ويوضح الحق من الباطل ، ويفرق بينهما بما فيه من الدلائل .

فقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ عام ، أي : أنزل لهداية الناس .

وأنزل آيات بينات من الهدى .

فالهدى الأول عام ، والثاني خاص بكونه خاصاً بالبينات .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي : للناس كافة .

وقوله في أول البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ خاص ، فهو هدى عام وخاص .

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ .

أي : حاضراً غير مسافر[١] .

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ ﴾ .

لم يقل : (ومن كان منكم مريضاً) كما قال في الآية الأولى ؛ لأنه تقدمه قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ ﴾ .

قد تقول : هو خاطبهم في الآية الأولى بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ .

فلم ذكر ﴿ مِنكُمُ ﴾ ؟

فنقول : لما قال ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ فلو قال (فمن كان مريضاً . . .) لظن أنه هنا في حكم الأولين ، وهو بعض مما كتب على الذين من قبلنا وليس علينا .

ولم يقل كما قال في الآية الأولى : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ .
لأنه قال ههنا : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ .

وهذا من تمام رأفته ورحمته .

﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ .

يحتمل أن يكون المعنى : (ويريد لتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) فاللام زائدة في مفعول (يريد) للتوكيد .

---

(١) الكشاف ١/ ٢٥٦ .

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل ، والعطف على علة مقدرة ، أي: يريد أموراً أخرى، ويريد لتكملوا العدة [(١)]، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

قيل: ليقيم الحجة على قومه ، وقيل: ليستدل به على الصانع وليكون من الموقنين [(٢)] .

﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ .

أي: على ما هداكم وعلى التيسير .

و﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ تحتمل المصدرية والموصولة ، أي: على هدايته لكم ، وعلى الذي هداكموه ، أو هداكم إليه .

* * *

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

* * *

١ ـ ورود هذه الآية بين آيات الصوم يدل على أن الصوم من دواعي الإجابة ، فإن الصائم مجاب الدعوة حتى يفطر .

«وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام

---

(١) انظر: الكشاف ١/ ٢٥٦ وانظر: البحر المحيط ٢/ ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) البحر المحيط ٤/ ١٦٥ .

الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال الفطر ، بل وعند كل فطر . وفي الحديث: للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة .

ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم. . . »[1] .

٢ ـ لقد تكفل الله بالإجابة عن السؤال ولم يكلهم إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل: (فقل لهم إنه قريب) كما قال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

وقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

وقال: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل: (فأنا قريب) لتأكيد قربه سبحانه من عباده.

٣ ـ وتكفل الله بالإجابة إذا دعاه العبد فقال: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ولم يعلق ذلك بالمشيئة فلم يقل: (إن شئت أو شاء ربك) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢١٩ .

وفي الحديث: **«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله تبارك وتعالى إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها»**[(١)]، ذلك أنه داع في وقت طاعة.

٤ - وقدم الإجابة الدالة على جواب الشرط، فقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

ولم يقل: (إذا دعاني أجيبه) للدلالة على قوة الوعد بالإجابة.

٥ - وقال: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ ولم يقل: (إن دعان) إشارة إلى أن العبد مطلوب منه أن يكثر من الدعاء، فإن ﴿إِذَا﴾ للمقطوع بحصوله، أو للكثير الوقوع[(٢)].

وإن الإكثار من الدعاء والإلحاح به مدعاة إلى الإجابة.

٦ - قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فالدعاء شرط للإجابة، وهو مطلوب، بل هو مخ العبادة.

وربنا يغضب إذا لم يُدعَ، وقد غضب ربنا على أقوام أخذهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٦.

(٢) انظر: كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٥٩ وما بعدها (إن) و(إذا) في باب الشرط.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وقال ربنا لنبيه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فأمره بالاستعاذة قولاً بأن ينطق بذلك ولا يكفي الشعور في القلب.

٧ ـ قال: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ ولم يقل: (أجيب الداعي).

لأن المطلوب هي الدعوة، وهي ما يريده الداعي وما يبتغيه.

٨ ـ وقال: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ولم يقل: (أجيب دعوتهم إذا دعوني) أو: (فقل لهم إني أجيب دعوتهم إذا دعوني) وذلك بقصد الشمول، ليشمل كل داع، ولا يخص السائلين عنه سبحانه، فشمل كل داع إلى يوم القيامة.

٩ ـ وقال ﴿ عِبَادِى ﴾ بالياء، ولم يقل (عبادِ) بحذف الياء للدلالة على أنه يجيب عباده كلهم إذا دعوه.

فإن القرآن يستعمل ﴿ عِبَادِى ﴾ لمن هم أكثر من (عباد)[1].

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾.

أي: فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحاجتهم[2].

---

(١) انظر: كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (عباد وعبادي) ص٣١.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٤٧.

﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ .

أي: أمر بالثبات والدوام على الإيمان[(١)] ، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ .

جاء في (نظم الدرر): «ولما أوجب استجابته سبحانه في كل ما دعا إليه ، وكانت الاستجابة بالإيمان أول المراتب وأولاها ، وكانت مراتب الإيمان في قوته وضعفه لا تكاد تتناهى ، قال مخاطباً لمن آمن وغيره: ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ أي: مطلق الإيمان أو حق الإيمان»[(٢)] .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

أي: يهتدون لمصالح دينهم ودنياهم[(٣)] ، وإصابة خيري الدنيا والآخرة.

لقد سبقت الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قيل: ليدل على أن الدعاء يكون بعد الثناء على الله[(٤)] وطاعته ، كقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقد سبق بالثناء عليه.

* * *

(١) انظر: روح المعاني ٢/ ٦٤ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ٣٤٩ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) انظر: روح المعاني ٢/ ٦٤ .

(٤) انظر: البحر المحيط ٢/ ٤٥ .

من سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤].

* * *

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

* * *

الخَلْق: التقدير. والخلق في كلام العرب: ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه(١).

---

(١) لسان العرب (خلق).

وخلق السموات والأرض: إيجادهما وإنشاؤهما على ما هما عليه.

والخَلْق يحتمل المصدر، أي: الإنشاء والإيجاد، ويحتمل المخلوق(١)، وذلك كما يقال: (هم شر الخَلْق) و(شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء) أي: المخلوقات.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يحتمل أن في إنشائهما وإيجادهما لآيات.

ويحتمل أن في ذات السموات والأرض وصفاتهما لآيات، أي: إن في السموات والأرض لآيات.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وخلقها: إيجادها واختراعها، أو خلقها وتركيب أجرامها وائتلاف أجزائها، من قولهم: خَلْق فلان حسن، أي: خلقته وشكله»(٢).

والآية تدل على الأمرين:

فإن في خلقها وكيفية إيجادها وإنشائها لآيات.

وإن في السموات والأرض أنفسهن لآيات.

والظاهر أن الأمرين مرادان. ولو أراد السموات والأرض تنصيصاً لذكرهما من دون ذكر الخلق معهما، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣].

---

(١) انظر: لسان العرب (خلق).

(٢) البحر المحيط ١/ ٤٦٤ وانظر: فتح القدير ٢/ ٦٦.

فإن في خلق السموات والأرض ، وفي السموات والأرض لآيات لأولي الألباب.

فإن أولي الألباب يتفكرون في خلقها وفي ذاتها وما فيها من العجائب ومظاهر القدرة.

و(اللب): هو خالص العقل وجوهره ، جاء في (لسان العرب): «لب كل شيء ولبابه: خالصه وخياره»[١].

وفي (تاج العروس): «لب الرجل: ما جعل في قلبه من العقل ، سمي به لأنه خلاصة الإنسان ، أو إنه لا يسمى ذلك إلا إذا خلص من الهوى وشوائب الأوهام.

فعلى هذا هو أخص من العقل»[٢].

وفي (المفردات في غريب القرآن): «اللب: العقل الخالص من الشوائب. وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب ، واللب من الشيء.

وقيل: هو ما زكا من العقل ، فكل لب عقل ، وليس كل عقل لباً.

ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب ، نحو قوله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ] أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ونحو ذلك من الآيات»[٣].

---

(١) لسان العرب (لبب).

(٢) تاج العروس (لبب).

(٣) المفردات في غريب القرآن (لب).

فأولو الألباب هم أصحاب العقول الراجحة الخالصة من الهوى والشوائب.

قد تقول: لقد قال في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الآية: ١٦٤].

فقال: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقال في آية آل عمران: ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: لقد بينا الفرق بين العقل واللب، فإن اللب هو خالصه وخياره.

وأما ختام كل آية بما ختم؛ فإنه لما ذكر في آل عمران صفة المتفكرين في خلق السموات والأرض، وأنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى كل حال، ويسبحونه ويدعونه، دلّ ذلك على أن هؤلاء أعلى ممن ذكروا في آية البقرة، وأن عقولهم وتفكيرهم أعلى.

فهؤلاء هو أولو العقول الخالصة الراجحة، ذلك أنه لم يذكر في البقرة وصفاً لهم غير العقل.

فناسب كل تعبير موضعه.

جاء في (تفسير الرازي) أنه ختم آية البقرة «بقوله ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وختم هذه الآية بقوله: ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لأن العقل له ظاهر وله لب،

ففي أول الأمر يكون عقلاً ، وفي كمال الحال يكون لباً»[١] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه إذا كان للعقل ظاهر ولب ، فلبّ العقل أقل من مجموعه . فإن ظاهر العقل ولبه أعم من اللب وحده . وما ذكره في البقرة أعم مما ذكره في آل عمران .

فإنه ذكر إضافة إلى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار الفلك التي تجري في البحر ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وبث الدواب فيها ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .

وهذا أعم مما ذكره في آل عمران وأشمل ، وما ذكره في آل عمران أخص .

فناسب العموم العموم ، وهو العقل .

وناسب الخصوص الخصوص ، وهو اللب .

قد تقول : لقد قال في سورة الجاثية : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٣ - ٥] .

فقال : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل (في خلق السموات والأرض) كما قال في آيتي البقرة وآل عمران .

---

(١) تفسير الرازي ـ المجلد ٣/ ٤٥٨ .

وقال: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ ولم يقل كما قال في البقرة ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ﴾ .

ذلك أن السموات والأرض إنما يكونان بعد الخلق ، فإن الخلق إنما هو مصدر في الأصل ، ومعناه: التقدير ، قال الحجاج: (ولا أخلق إلا فريت) أي: لا أُقدّر إلا قطعت.

فالتقدير أولاً ، ثم الإيجاد بعده على ما قدر.

وإن الرزق يكون بعد إنزال الماء ، فإنه بعده يحصل الرزق بما تنتج الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢].

فناسب ذكر السموات والأرض ذكر الرزق.

وناسب ذكر خلق السموات والأرض ذكر الماء.

ثم إنه قال في آيات الجاثية: ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، والدواب تحتاج إلى الرزق لتعيش ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فناسب كل تعبير موضعه.

قد تقول: لقد قال في آية آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

فقدم خلق السموات والأرض على اختلاف الليل والنهار.

وقال في يونس: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [الآية: ٦].

فقدم اختلاف الليل والنهار، فلم ذاك؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب، منها:

١ ـ أنه قال قبل آية يونس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٥].

ومن المعلوم أن اختلاف الليل والنهار عائد إلى اختلاف مطالع الشمس.

ولما تقدم ذكر الشمس والقمر قدم اختلاف الليل والنهار، والشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

أما آية آل عمران فقبلها: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

فذكر السموات والأرض، فلما تقدم ذكرهما ناسب البدء بذكرهما، وتقديمهما.

٢ ـ قال في آية آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فذكر خلق السموات والأرض.

وقال في آية يونس: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكر خلق ما فيهما لا خلقهما ، وكثير مما خلق الله فيهما إنما هو بعد وجود الليل والنهار.

فالنبات والحيوان ، ثم الإنسان إنما هي بعد وجود الليل والنهار ، وكثير مما هو في الأرض إنما هو بعد وجود الليل والنهار.

وكذلك ما خلق الله في السماء ؛ فإن قسماً من ذلك تكوّن بعد وجود الليل والنهار. وكثير من الظواهر الكونية إنما هي بعد وجود الليل والنهار.

ويقال: إنه لا تزال تتشكل أجرام أو تندثر إلى الآن.

فناسب تقديم ذكر الليل والنهار.

٣ ـ ومن الاختلاف بين الآيتين أنه ختم آية يونس بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ذلك أنه ختم الآية التي قبلها بقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

والعلم يؤدي إلى التقوى وخشية الله كما قال ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فناسب الختم بما ختم سبحانه.

❊ ❊ ❊

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

❊ ❊ ❊

ذكر الله إنما يكون باللسان والقلب ، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَٱذْكُر

رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] .

وقدم القيام على القعود ، والقعود على الاضطجاع على الجنب في حالة العافية ؛ لأن الإنسان في حالة العافية كذلك بخلاف حالة المرض ، فإن الأكثر أن يكون ملازماً لجنبه. وقد غاير ربنا الترتيب في حالة المرض فقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس: ١٢] .

فقدم الجنب في حالة الضر وأخر القيام ، وقدم القيام في حالة العافية وأخر الاضطجاع على الجنب(١) .

والمعنى أنهم يذكرونه في جميع أحوالهم.

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

أي: يتفكرون في إنشائهما وإيجادهما ، ويتفكرون فيهما بعد الإنشاء والإيجاد ، فهم يتفكرون في خلقهما ، وفيهما بدليل قوله سبحانه على ألسنتهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ فقد أشار إلى هذه المخلوقات بقوله: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

لم يقل: (يقولون ربنا) أو: (قائلين ربنا) ليشمل قولهم بألسنتهم وفي نفوسهم وفي تفكرهم.

---

(١) انظر: كتابنا (معاني النحو) ـ باب حروف الجر (اللام) ٣/ ٦٤ .

وقدر بعضهم قولاً مقدراً ، أي: يتفكرون في ذلك قائلين أو يقولون[١] .

وجوز بعضهم أن يكون قوله: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ حكاية لتفكرهم في نفوسهم ، جاء في (التحرير والتنوير): «ويجوز عندي أن يكون قوله: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ حكاية لتفكرهم في نفوسهم ، فهو كلام النفس يشترك فيه جميع المتفكرين»[٢] .

ويترجح عندي إرادة الأمرين ، فلم يذكر القول.

وقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي: تنزهت عن العبث والباطل ، فإنك لا تفعل إلا الحق «وصدرت الجملة بالنداء مبالغة في التضرع إلى معوّد الإحسان كما يشعر به لفظ الرب»[٣] .

وبعد دوام الذكر على جميع أحوالهم وتفكرهم فيما خلق ربهم ، وتنزيههم له عن العبث والباطل وعن كل ما لا يليق ، تضرعوا إليه بالدعاء أن يقيهم عذاب النار ، وهو أعظم ما يخافه ويخشاه أهل الذكر والمعرفة بالله ، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو لهم غير ظالم.

ولعل هذا إشارة إلى أن الداعي يحسن أن يقدم بين يدي دعائه ذكر الله والثناء عليه ، وألا يكون غافلاً ، كما علمنا ربنا في سورة الفاتحة أن ندعوه بعد الثناء عليه وإخلاصهم له بالعبادة وذلك قوله: ﴿ ٱهْدِنَا

---

(١) انظر: روح المعاني ٤/ ١٦٠ .

(٢) التحرير التنوير ٤/ ١٩٧ .

(٣) روح المعاني ٤/ ١٦٢ .

﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بعد قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

والوقاية من عذاب النار فوز، كما قال ربنا: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

* * *

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

* * *

تكرار النداء بقولهم ﴿ رَبَّنَآ ﴾ يدل على تضرعهم وتذللهم له.

﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أي: فضحته وأهنته.

﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي: ليس لهم من ناصر ينصرهم.

وجاء بـ (من) الاستغراقية لتأكيد ذلك ولاستغراق نفي الأنصار على وجه العموم. جاء في (روح المعاني): «أي: ليس لكل منهم ناصر ينصره ويخلصه مما هو فيه... ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم، والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم»(١).

ثم إن اختيار (الظالمين) مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية.

وذلك ليشمل الذين قتلوا الأنبياء الذين ذكرهم فيما تقدم من قوله

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٣.

سبحانه: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ [الآية: ١٨٦].

وقوله بعد ذلك: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى ﴾ [الآية: ١٩٥].

وكل ذلك من فعل الظالمين.

وقال: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ بجمع النصير، ولم يقل: (وما للظالمين من نصير) كما قال في الحج (٧١)؛ لأن المذكورين في آية آل عمران أكثر، وهم على مدى الأزمان. أما المذكورون في الحج فهم المذكورون في زمن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ويستمر في ذكرهم.

وهؤلاء قلة بالنسبة إلى عموم الظالمين، وقد يكون لهؤلاء نصير واحد، فناسب ذكر المفرد.

أما المذكورون في آية آل عمران فهم مستمرون إلى آخر الدنيا فلا يكون لهم نصير واحد.

ثم إنه ناسب الكثرة الجمع، والقلة الإفراد.

قد تقول: لقد قال في مواطن: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٢-٥٦].

فقال: ﴿ نَٰصِرِينَ ﴾.

وقال في مواطن: (من أنصار) فما الفرق؟

فنقول: إن (الأنصار) يحتمل أن يكون جمع (نصير) كشريف وأشراف، وأن يكون جمع (ناصر).

فإن جمع (النصير) على أنصار.

و(الناصرون) جمع ناصر.

و(النصير) صيغة مبالغة، و(الناصر) اسم فاعل.

والنصير أقوى من الناصر، فإن نفيت الناصر كان نفي النصير من باب أولى.

ونفي النصير لايعني بالضرورة نفي الناصر، فإن نفي الكثير لايعني بالضرورة نفي القليل.

فقولك: (مالك من ناصر) أقوى في نفي من ينصرك من قولك: (مالك من نصير).

وهذا الأمر جارٍ في القرآن الكريم، فإنه يقول: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ في الكفار، وما هو أشد ضلالاً، وفيمن هم أشد ضلالاً، من قوله: (مَا لَهُم مِّن أَنصَارٍ).

فإنه يقول في مواطن عدة: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، [آل عمران: ١٩٢]، [المائدة: ٧٢].

والظالم ليس كافراً بالضرورة، فإن الظالم قد يكون كافراً وغير كافر.

وأما قوله: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فقد يقوله في الكفار ومن هو أشد ضلالاً.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١ ـ ٢٢].

فقد ذكر كفرهم وظلمهم لقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم من يأمر بالقسط من الناس، فقال: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٦].

فذكر الذين كفروا، وذكر أنهم يعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

فذكر الذين كفروا وماتوا وهم كفار.

وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٧ ـ ٣٨].

فذكر أن الله لايهدي من يُضل، ومعنى ذلك أنهم يموتون على

الكفر ، ثم ذكر أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ، فذكر أنهم لايؤمنون بالبعث .

فهؤلاء كفار ضالون لايهديهم الله .

وقال في قوم إبراهيم الذين ألقوه في الجحيم : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

فذكر أن هؤلاء يعبدون الأوثان وذكر حالهم في الآخرة .

وقال : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [الروم : ٢٩] .

فهؤلاء ظالمون يتبعون أهواءهم ، وإن الله أضلهم فلن يهديهم أحد ، ومعنى ذلك أنهم كافرون ظالمون .

وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية : ٣٢ ـ ٣٥] .

فهؤلاء منكرون للساعة مستهزئون بآيات الله ، وهم سيمكثون في النار لا يخرجون منها .

فأنت ترى أن كل من قال فيهم : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ هم أشداء في الكفر ضالون لن يهديهم أحد .

في حين قال: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

فلم يذكر غير الظلم فقال: ﴿ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

وقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فذكر الظالمين.

وكذا قال في المائدة: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

* * *

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

* * *

كرروا نداء ربهم بقولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا ﴾ إظهاراً لتضرعهم وتذللهم.

﴿ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾.

المنادي قيل: هو رسول الله ﷺ، وقيل: هو القرآن، قيل: لأنه ليس كل واحد يسمع النبي ﷺ، وأما القرآن فظاهر باق على مرِّ الأيام والدهور[1].

---

(١) انظر: روح المعاني ٤/ ١٦٣.

قد تقول: لِمَ لَمْ يقل: (إنا سمعنا منادياً للإيمان) ويكتفي، ولكن جمع بين المنادي وفعله فقال: ﴿ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾؟

وأجيب عن ذلك بأنه للتعظيم والتفخيم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فأي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟

قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان. ونحوه قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام. وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع. وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق، ويهدي لسداد الرأي، وغير ذلك. فإذا قلت: ينادي للإيمان، ويهدي للإسلام، فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وفي إطلاق المنادي أولاً حيث قال سبحانه: ﴿ مُنَادِيًا ﴾ ولم يذكر ما دعي له، ثم قوله عز شأنه: ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾ ما لا يخفى من التعظيم لشأن المنادي والمنادى له. ولو قيل من أول الأمر: (منادياً للإيمان) لم يكن بهذه المثابة.

وحذف المفعول الصريح لـ (ينادي) إيذاناً بالعموم، أي: كل واحد»[2].

واختار (المنادي) على (الداعي) لأن النداء فيه رفع الصوت، فكأنه

---

(١) الكشاف ١/ ٣٦٩.

(٢) روح المعاني ٤/ ١٦٤.

رفع صوته بالدعاء إلى الله ليسمعه كل أحد.

وجاء في (روح المعاني): «وإيثاره على (الداعي) للإشارة إلى كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى القريب والبعيد؛ لما فيه من الإيذان برفع الصوت»[١].

وجاء في (التحرير والتنوير): «المنادي الذي يرفع صوته بالكلام، والنداء: رفع الصوت بالكلام رفعاً قويًّا لأجل الإسماع... ومنه سمي الأذان: نداء.

وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدعوة وإن لم يكن في ذلك رفع صوت»[٢].

وذكروا أنهم آمنوا عن طريق السماع لا عن طريق رؤيته ﷺ، وفي ذلك إظهار لصدق إيمانهم وسرعة استجابتهم.

فالذين آمنوا برسول الله ولم يروه لهم فضلهم وكرامتهم على الله.

ثم إن ذكر السماع مناسب لذكر النداء، فإن النداء يسمع.

وقالوا: (إننا) بتكرار النون إشارة إلى توكيد ذلك. جاء في (نظم الدرر) أنهم أظهروا النون في (إننا) إبلاغاً في التأكيد[٣].

قد تقول: ولكنه قال في مواطن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ ولم يظهر النون،

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٩.

(٣) نظم الدرر ٢/ ١٥٧.

وذلك في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقوله: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

وكلتا الآيتين على لسان الجن.

فنقول: الاختلاف من أوجه:

ذلك أنهم ذكروا أنه سمعوا الكتاب ولم يسمعوا المنادي، في حين أنه قال في آل عمران أنهم سمعوا المنادي.

وسماع المنادي أدعى إلى التأكيد، هذا إضافة إلى أن في النداء من رفع الصوت ما يدعو إلى المبالغة.

فناسب التوكيد في آية آل عمران.

والأمر الآخر أنه في آية آل عمران ذكروا ذلك توسلاً وطلباً لمغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم وحسن الخاتمة وأمور أخرى ذكروها في قوله: ﴿ وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾، والداعي ينبغي أن يتوسل ويتضرع ويؤكد ذلك، فناسب التأكيد.

ولم يرد مثل ذلك في آيتي الأحقاف وسورة الجن.

فناسب كل تعبير موضعه.

﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ .

عطف بالفاء للدلالة على سرعة استجابتهم ، وهو «مؤذن بتعجيل القبول وتسبب الإيمان عن السماع من غير مهلة»[(١)] .

﴿ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ .

ذلك أن الإيمان مدعاة إلى مغفرة الذنوب ؛ لأن الإسلام يجبّ ما قبله. وأما من لم يؤمن فلا مغفرة له ولا تكفير.

وقيل فيما قيل: إن المراد من الذنوب ما تقدم من المعاصي ، ومن السيئات ما تأخر منها. جاء في (نظم الدرر) للبقاعي في قوله: ﴿ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ «أي: التي أسلفناها قبل الإيمان ، بأن تقبل منا الإيمان فلا تزيغ قلوبنا ، فيكون جابّاً لما قبله عندك كما كان جابّاً في ظاهر الشرع.

وكذا ما فرط منا بعد الإيمان ولو كان بعد توبة ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ أي: بأن توفقنا بعد تشريفك لنا بالإيمان لاجتناب الكبائر بفعل الطاعات المكفرة للصغائر»[(٢)] .

والأكثرون على أن الذنوب هي الكبائر ، والسيئات هي الصغائر ، ويؤيد ذلك قوله: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [النساء: ٣١] فأفرد السيئات عن الكبائر.

لقد ذكر في الآية مع الذنوب المغفرة ، ومع السيئات التكفير ؛ ذلك

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٤ .

(٢) نظم الدرر ٢/ ١٥٧ وانظر: روح المعاني ٤/ ١٦٤ .

أن (غفر) معناه: ستر وغطى ، وكل شيء سترته فقد غفرته.

ومنه (المِغْفر) وهو زرد من الحديد يكون تحت بيضة الحديد على الرأس ؛ لأنه يغطي ما تحته.

وأما (كفر) فهو من الستر أيضاً. والكفر في اللغة: التغطية ، غير أنه لايرقى إلى صلابة المغفر وشدته وقوته. فـ «الكافر: الزَّرّاع لستره البذر بالتراب ، والكفار: الزُّرّاع ، والكافر: الليل ، والكافر والكَفْر: الظلمة ، لأنها تستر ما تحته ، والكَفر: ظلمة الليل»[1].

فلما كان الذنب أعظم وأثره أكبر وعقوبته أشد ، استعملت معه المغفرة ؛ لأن المغفر يقي ما تحته ويحميه.

ولما كانت السيئة من الصغائر ؛ استعمل لها ما هو أخف ، فالكافر: الليل ، والكافر: الظلمة.

والليل والظلمة يحجبان الرؤية ، ولكنهما لا يحميان من السهام والسلاح أو الضرب.

وكذلك إذا كان بمعنى (كفر البذرة) أي: غطاها بالتراب ، فإن التراب يكون قليلاً فوقها ، وهو لا يحميها إذا أرادها أحد بسوء.

فلما كانت السيئة أخف استعمل منها ما هو أخف في التغطية.

وقدم مغفرة الذنوب على تكفير السيئات لأنها أعظم ، ولأن الإسلام

---

(١) انظر لسان العرب (كفر) و(غفر) ، القاموس المحيط (كفر) و(غفر).

يجبّها ، وقدمهما على التوفي ليموتوا مغفوراً لهم فلا يصيبهم عذاب القبر .

ثم سألوه صحبة الأبرار وذلك قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

«مخصوصين بصحبتهم ، معدودين في جملتهم»(١) .

فهم بدعائهم هذا سألوه حسن الخاتمة وصحبة الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ، وقال في آية أخرى من السورة : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

فقال في الآية السابقة : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

وقال في هذه الآية : ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

فاختلفت الخاتمتان ، فما السبب؟

فنقول : إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك ، فإنه قال في سياق الآية التي ذكرناها آنفاً : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن

---

(١) انظر : الكشاف ١/ ٣٦٩.

قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

فالسياق كما هو بيّن في الجهاد وساحة القتال، فسؤال التثبيت والنصر هو المناسب، ولا يناسب طلب الوفاة.

فالذين في ساحة القتال يسألون التثبيت والنصر، وهذا هو المناسب، فكانت كل خاتمة أنسب بسياقها.

* * *

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

* * *

أي: آتنا ما وعدتنا، وهو الوعد الذي ذكرته على لسان رسلك للمصدقين بهم، فنحن آمنا بك وصدّقنا رسلك.

والظاهر - والله أعلم - أن الوعد يشمل ما وعد المؤمنين من النصر في الدنيا، وما وعدهم من حسن ثواب الآخرة.

وقوله: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعني: لا تفضحنا بسوء ما عملناه إن كنا أذنبنا، فاستر ذلك علينا يا ربنا. جاء في (الكشاف): «الموعود هو الثواب، وقيل: النصرة على الأعداء»[١].

وجاء في (روح المعاني): «وأيد كون المراد النصر لا الثواب

(١) الكشاف ١/ ٣٦٩.

الأخروي تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ لأن طلب الثواب يغني عن هذا الدعاء ؛ لأن الثواب متى حصل كان الخزي عنهم بمراحل. وهذا بخلاف ما إذا كان المراد من الأول الدعاء بالنصر في الدنيا ، فإن عدم الإغناء عليه ظاهر ، بل في الجمع بين الدعاءين حينئذ لطافة ؛ إذ مآل الأول لا تخزنا في الدنيا بغلبة العدو علينا.

فكأنهم قالوا: لا تخزنا في الدنيا ، ولا تخزنا في الآخرة. . .

وترك العطف في هذه الأدعية المفتتحة بالنداء بعنوان الربوبية للإيذان باستقلال المطالب وعلو شأنها»[١] .

وجاء في (التحرير والتنوير) أنه «ثواب الآخرة وثواب الدنيا لقوله تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾»[٢] .

وهو الراجح فيما أحسب.

قد تقول: لقد قال في هذه السورة في موضع سابق: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩] .

فقال بعد الخطاب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩].

بإسناد ذلك إلى لفظ الجلالة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

وقال في هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

---

(١) روح المعاني ٤/١٦٦ .
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٢٠٠ .

بالإسناد إلى ضمير الخطاب ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب أن الظاهر من تعبير : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أن هذا كلام الله سبحانه ، وليس كلام الراسخين ، جاء في (البحر المحيط): «ظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدل على الاستئناف ، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلام الراسخين الداعين.

قال الزمخشري: معناه أن الإلهية تنافي خلف الميعاد ، كقولك: إن الجواد لايخيب سائله»[١] .

وجاء في (روح المعاني): «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ جوز أن تكون هذه الجملة من كلامه تعالى لتقرير قول الراسخين لا من كلام الراسخين. قال السفاقسي: وهو الظاهر»[٢] .

وجوز أن يكون ذلك من كلامهم على الالتفات «للإشارة إلى تعظيم الموعود والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب. . . وهذا بخلاف ما في آخر السورة حيث أتى بلفظ الخطاب فيه لما أن مقامه مقام طلب الإنعام»[٣] .

والفرق بين الموطنين أن الراسخين في العلم لم يشيروا إلى موعد وعدهم إياه ، ولم يطلبوا إلا الهداية وطلب الرحمة وعدم زيغ القلوب

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ .
(٢) روح المعاني ٣/ ٩١ .
(٣) روح المعاني ٣/ ٩١ .

فقالوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ ثم ذكروا جمع الناس ليوم لاريب فيه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ يعني: جمع الناس لذلك اليوم.

وأما الآية الأخرى فهي في سياق جملة من الأدعية، ومن ذلك قولهم: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

فهم طلبوا أن يؤتيهم ما وعدهم على ألسنة رسلهم في الدنيا والآخرة. ، فلما سألوه إنجاز ماوعدهم قالوا: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ فناسب ذلك تذييل كلامهم بما قالوا توسلاً لإنجاز ما وعدهم إياه ربهم.

* * *

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [الآية: ١٩٥] .

* * *

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ .

جاء بالفاء للدلالة على سرعة استجابة دعائهم.

وذكر الرب مضافاً إليهم، وذلك لما دعوه قائلين: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا . . . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ بإضافة الرب إليهم، فاستجاب

ربهم دعاءهم بإضافة الرب إليهم ، فإنهم دعوا ربهم فاستجاب لهم ربهم. وهو نظير قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ (٣٣) ﴾ بذكر الرب مضافاً إليه ، فاستجاب له سبحانه بقوله: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ ﴾ فإنه دعا ربه فاستجاب له ربه.

لقد ذكر الإيمان أولاً بقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾ .

وذكر ههنا العمل فقال: ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم ﴾ .

فدل ذلك على أن استجابة دعائهم إنما كانت للإيمان والعمل الصالح ، ولما قدموه بين يدي الدعاء من التعظيم والثناء على الله ، وذلك قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ . . . ﴾ مما يدل على أنه ينبغي الثناء على الله وتعظيمه وذكره قبل الدعاء.

جاء في (روح المعاني): «وذكر الرب هنا مضافاً مالايخفى من اللطف... والإشعار بأن مدارها [أي: الاستجابة] أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء»[(١)] .

وقال: ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ ليشمل جميع المتصفين بهذه الصفات ، وأن هذا لا يختص بالذكور. وهو نظير قوله في (غافر): ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [غافر: ٤٠] .

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٨ ، وانظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٣٣.

فذكر الذكر والأنثى.

وقد تقول: لقد قال في غافر: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في ال عمران، فما السبب؟

والجواب ظاهر، وذلك أنه ذكر أنهم مؤمنون، فقد قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾.

وقد وصفهم بصفات المؤمنين.

وقد قال: ﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ أي: من المؤمنين، وذكر أنهم أوذوا في سبيله. فذكر الإيمان والعمل الصالح في الموضعين.

لقد ذكر في هذا السياق:

١ ـ الإيمان بالله، فقال: ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾.

٢ ـ وذكر الإيمان بالرسل، وذلك قوله: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾. ومقتضى الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب وما نزل إليهم. والإيمان بالملائكة، فإنهم هم الذين يبلغون الرسل عن الله.

وقد ذكر الذين أوتوا الكتاب قبل هذه الآيات فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [الآية: ١٨٧].

٣ ـ وذكر الإيمان باليوم الآخر فقال: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

ومقتضى الإيمان بالكتب الإيمان بما ورد فيها، ومنها الإيمان بالقدر، فاستكملوا عناصر الإيمان.

* * *

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

* * *

لقد رتب هذه الأمور بحسب الشدة.

فذكر الهجرة ، والهجرة قد تكون اختياراً ، وقد تكون اضطراراً.

ثم ذكر الذين أخرجوا من ديارهم ، وهو أشد مما قبله ، فإنهم أخرجوا منها إخراجاً.

ثم ذكر الإيذاء في سبيل الله ، وهو أشد مما قبله.

ثم ذكر القتال ، وهو أشد مما قبله ، فإن الإيذاء قد لا يؤدي إلى القتال.

ثم ذكر بعد ذلك القتل ، وهو أشد من كل ما سبق.

﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

قدم تكفير السيئات على دخول الجنات؛ لأن دخول الجنات بعد تكفير السيئات ، فقدم ما هو أسبق.

لقد أكد تكفير السيئات وإدخال الجنات بنون التوكيد الثقيلة ، وقال في أكثر من موضع: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ [النساء: ٥٧ ـ ١٢٢] .

والسين ونون التوكيد كلتاهما تفيد الاستقبال ، فما سبب اختيار كل تعبير؟

والجواب أن السياق يوضح سبب ذلك.

فإنه يؤكد بالنون إذا كان العمل ثقيلاً شاقاً، وإن لم يكن السياق كذلك جاء بالسين.

فقد ذكر ههنا الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيله وقاتلوا وقتلوا، وكلّ ذلك من المشاقّ، فأكد بالنون.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ﴾ [المائدة: ١٢].

فقد ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسل الله ومساندتهم وتقويتهم وإقراض الله قرضاً حسناً.

وفيها شيء من المشاق، وخصوصاً تقوية الرسل ومساندتهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ فقد يقتضي ذلك مواجهة من لم يؤمن.

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٨ ـ ٥٩].

فقد ذكر الهجرة والقتل والموت، ولا تخفى مشقة ذلك.

أما ما جاء بالسين فليس السياق في نحو ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧].

فليست هذه في سياق الجهاد والفتنة وما إلى ذلك، حتى إنه لم يفصل في الإيمان والعمل الصالح كما فصل في آية المائدة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها إضافة إلى الإيمان.

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

فليست الآية في سياق مشاق الأعمال وثقيلها.

فلما كانت الآيات في سياق مشاقّ الأعمال وثقيلها أكد بالنون الثقيلة، ولما لم تكن كذلك لم يأت بها. والله أعلم.

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

لم يقل: (وعند الله الثواب الحسن)؛ لأن الكلام على الله ودعائه وتنزيهه وأنه استجاب لهم ووعدهم بأنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات، ثم قال ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ فناسب تقديمه والإخبار عنه بأنه عنده حسن الثواب.

كما لم يقل: (والله عنده الثواب الحسن) بوصف الثواب بالصفة المشبهة، وإنما قال: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ فجاء بـ (الحسن) مصدراً، مبالغة في وصفه بالحسن، أي: هو الحسن بعينه.

وقدم الخبر للحصر ، فليس عند غيره ثواب أصلاً ، وإنما هو عنده حصراً ، فإذا كان عنده الحُسْن فكيف يكون حسن عند غيره؟ وكيف يكون عند غيره نصيب منه؟

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قابل في التعبير في الآية .

فإن قوله : ﴿ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ قابله بقوله : ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ ﴾ .

فالإخراج مقابل الإدخال .

و﴿ أُخْرِجُواْ ﴾ مبني للمجهول ، و(أدخلنهم) مبني للفاعل ، وهو مسند إلى رب العزة .

و(الديار) التي أخرجوا منها تقابل (الجنات) التي أدخلهم ربهم فيها .

* * *

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧] .

* * *

التقلب: هو التصرف على حسب المشيئة من ذهاب ومجيء وسفر وتجارة وحروب .

وهذا دال على تمكنهم وسعة تصرفهم .

فنهاه عن أن يغتر بذاك ، فإن هذا متاع قليل .

وقد أكد النهي بالنون ؛ لأن المقام يقتضي ذلك ، فهم متمكنون آذوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم وآذوهم وقاتلوهم ، وكل ذلك مدعاة

إلى الاغترار بقوتهم وقدرتهم ، فنهاه عن أن يغتر بذاك ، وأخبر عن ذاك بأنه متاع قليل.

والمتقلب لابد أن يأوي بعد تقلبه ، فذكر أن مأواهم جهنم.

والمتقلب يريد أن يمهد لنفسه ما يستريح إليه ويجد فيه راحة فقال: ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي: بئس ما مهدوا لأنفسهم.

جاء في (البحر المحيط): « ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾: ثم المكان الذي يأوون إليه إنما هو جهنم.

وعبر بـ (المأوى) إشعاراً لهم بانتقالهم عن الأماكن التي تقلبوا فيها ، وكأن البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان ، لا قرار لهم ولا خلود. ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو جهنم»[١].

وجاء في (تفسير أبي السعود): « ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ذم لها وإيذان بأن مصيرهم إليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم»[٢].

وجاء في (روح المعاني): « ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي: بئس ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم.

وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى تلك الدار مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم»[٣].

* * *

(١) البحر المحيط ٣/ ١٧٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٣٤.
(٣) روح المعاني ٤/ ١٧٢.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

* * *

لقد أثير سؤال في هذه الآية، وقوله سبحانه في الآية ذات الرقم (١٩٥)، وهي قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ... ﴾.

وهو أنه قال في هذه الآية: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل في الآية السابقة ذلك، فلم ذاك؟

وظاهر أن ثمة أكثر من اختلاف بين هاتين الآيتين:

١ ـ فقد قال في الآية (١٩٥): ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾.

وقال في هذه الآية: ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾.

٢ ـ وقال في الآية (١٩٨): ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

ولم يقل في الآية (١٩٥) ذلك.

٣ ـ وقال في الآية (١٩٥): ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾.

وقال في الآية (١٩٨): ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾.

ومن النظر في الآيتين يتضح سبب الاختلاف بينهما.

١ ـ ذلك أن المذكورين في الآية (١٩٨) أعم وأشمل وأعظم ممن ذكر في الآية (١٩٥).

فإن الأولين ، وهم الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ومن ذكرهم بعدهم ، إنما هم من المتقين ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فإن الموصوفين بالآية (١٩٥) إنما هم قسم ممن ذكر في الآية (١٩٨).

قال تعالى : ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ .

جاء في (تفسير الرازي) في قوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ ﴾ أنه «يتناول جميع الطاعات ؛ لأنه يدخل في التقوى الاحتراز عن المنهيات وعن ترك المأمورات»[1] .

فلما ذكر أن المتقين خالدون فيها دخل فيهم أولئك المذكورون في الآية (١٩٥) .

ولما كان المذكورون في الآية (١٩٨) أعم وأشمل ، ناسب ذكر الخلود فيما هو أعم .

ثم إنه لما ذكر تقلب الذين كفروا في البلاد وقال إنه متاع قليل ، أي : هو زائل وهم زائلون ، ناسب أن يذكر أن الذين اتقوا ربهم خالدون في الجنة وليس المتاع قليلاً .

(١) تفسير الرازي ـ المجلد الثالث ٤٧٢ .

٢ ـ ذكر في الآية (١٩٥) أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وذكر فيمن هم أعم وأشمل، وهم الذين اتقوا ربهم أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

ولاشك أن هؤلاء أعلى؛ فإن قوله: ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾ يفيد التمليك. أما الإدخال فلا يعني التمليك بالضرورة، فإنك لو أدخلت شخصاً في قاعة أو قصر، لا يعني أنك ملكته إياه، بخلاف ما لو قلت: إنه لك.

فناسب الجزاء العمل.

٣ ـ وقال في الآية (١٩٥): ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

وقال في الآية (١٩٨): ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

والنزُل: ما يعدّ للضيف أول نزوله من شراب وطعام وصلة، فهم في ضيافة الرحمن.

ومن معاني النزُل أيضاً: المنزل.

والنزل أعلى من الثواب؛ فإنك قد تعطي الثواب صاحبه ولكن لا تنزله وتعدّ له الإكرام.

وإذا كانت الجنة نزلاً فما بالك بما بعدها من نحو قوله: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]؟

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي: «وأشار بجعل الجنات كلها نزلاً إلى التعريف بعظيم ما لحقهم بعد ذلك عنده سبحانه من النعيم الذي لا

يمكن الآدميين وجه الاطلاع على حقيقة وصفه ؛ ولهذا قال معظماً - لأنه لو أضمر لظن الاختصاص بالنزل - ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ أي: الملك الأعظم من النزل وغيره»[١] .

وجاء في (روح المعاني): «النزل: ما يعدّ للضيف أول نزوله من طعام وشراب وصلة. . .

وعليه تمسك بعضهم بالآية على رؤية الله تعالى ، لأنه لما كانت الجنة بكليتها نزلاً ؛ فلا بد من شيء آخر يكون أصلاً بالنسبة إليها ، وليس وراء الله شيء. . . نعم فيه حينئذ إشارة إلى أن القوم ضيوف الله تعالى ، وفي ذلك كمال اللطف بهم»[٢] .

وجاء في (البحر المحيط): «وسماه نزلاً لأنه ارتفع عنهم تكاليف السعي والكسب ، فهو شيء مهيأ ، يهيأ لهم لا تعب عليهم في تحصيله ولا في تسويته ومعالجته. . .

والأبرار هم المتقون الذين أخبر عنهم بأن لهم جنات»[٣] .

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ ولم يقل: (وما عند الله خير لهم) ليبين أن الذين اتقوا إنما هم من الأبرار. قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩] .

وقال: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

(١) نظم الدرر ٢/ ١٥٩ .
(٢) روح المعاني ٤/ ١٧٣ .
(٣) البحر المحيط ٣/ ١٤٧ .

﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ . . . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

«والتعبير عنهم بالأبرار، ووضع الظاهر موضع المضمر، كما قيل؛ للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر، كما أنها من قبيل التقوى»(١) .

ثم إن قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ مناسب لدعاء المؤمنين: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ وقد ذكر طرفاً من صفاتهم، وهو الإيمان والتفكر في خلق السموات والأرض وذكر الله سبحانه.

* * *

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

* * *

هذه الآية مناسبة لما قبل هذه الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٨٧ ـ ١٨٨] .

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٧٣، وانظر: البحر المحيط ٣/ ١٤٨، تفسير أبي السعود ٢/ ٢٤.

فذكر الذين أوتوا الكتاب وأخذه الميثاق عليهم ليبيننه للناس فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً .

ثم ذكر ههنا أن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إلى الرسول وما أنزل إليهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

فأولئك اشتروا به ثمناً قليلاً ، وهؤلاء لا يشترون به ثمناً قليلاً .

وذكر أن أولئك لهم عذاب أليم .

وأما هؤلاء فلهم أجرهم عند ربهم .

وهي مناسبة أيضاً لما ورد في أول السورة من إنزال القرآن والتوراة والإنجيل ، وهو قوله سبحانه : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ .

وقد ذكر في هذه الآية ، أعني الآية ذات الرقم (١٩٩) ، أن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وهي الكتب المذكورة في أول السورة .

فناسبت الآية ما تقدمها وما ورد في أول السورة .

لقد قال ههنا : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ . . . ﴾ .

بالتوكيد بـ (إن) واللام .

وقال في موضع آخر : ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ

إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥] من غير توكيد ، وذلك لأن هذا الموطن أدعى إلى التوكيد ، ذلك أن المؤتمنين في خلق الله كثير. ولاشك أن من أهل الكتاب من يؤدي الأمانة ، ولكن أن يغير الذي من أهل الكتاب دينه ويؤمن بما أنزل إلى الرسول خاشعاً لله ، فهذا قليل نادر. وهو الذي به حاجة إلى توكيد أكثر من الحالة الأخرى.

فأكد ما هو أولى بالتوكيد.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

أكد سرعة الحساب بـ (إن). وفي مواطن لا يؤكد ذلك ، وإنما يقول: ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أو نحوه.

وهناك أمور تقتضي التوكيد ، منها: أن يكون الخلق كثيرين ، وهذا في العادة يقتضي طول الحساب ، ولئلا يظن أن ذلك يقتضي طول مدة بالنسبة إلى الله ؛ يؤكد سرعة الحساب.

أو أن الحساب قريب عاجل ، فيؤكد لئلا يظن أنه سيؤخره. أو أنه نافذ علمه في الحساب ، وفي كل شيء لا يندّ عنه شيء ، فإن ذلك يؤكد سرعة الحساب ، بخلاف من لا علم له.

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي: «ولما كانت العادة قاضية بأن كثرة الخلق سبب لطول الحساب ، وذلك سبب لطول الانتظار. . . فأزال هذا التوهم بأن أمره تعالى على غير ذلك ؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي: بما له من الجلال والعظمة والكمال ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ »[١].

وجاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾: «لنفوذ علمه في كل شيء، فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر. ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد»[٢].

وجاء في (روح المعاني): « ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ إما كناية عن كمال علمه تعالى بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق وأنه يوفيها كل عامل على ما ينبغي وقدر ما ينبغي... وإما كناية عن قرب الأجر الموعود؛ فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء»[٣].

وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وهذا يشمل جميع النفوس على الإطلاق (كل نفس) فاقتضى توكيد سرعة الحساب.

وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

وهذا نظير الآية السابقة، فذكر كل النفوس، فاقتضى التوكيد. في

---

(١) نظم الدرر ٢/ ١٦٠.
(٢) الكشاف ١/ ٣٧١.
(٣) روح المعاني ٤/ ١٧٤.

حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

وهذا شخص واحد جرى نحو السراب فمات ظمآن، فلا يستدعي توكيد سرعة الحساب.

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١].

وهو في هذه الآية لم يذكر أناساً يحاسبهم، وإنما هو من باب ذكر صفته سبحانه.

وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

والكفرة كثيرون، فناسب توكيد سرعة الحساب.

وقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [المائدة: ٤].

وفي هذه الآية أمران، كل منهما يقتضي التوكيد:

الأمر الأول: أنه حكم لعموم المسلمين، وهم كثرة.

والأمر الآخر: أنه أمرهم بالتقوى. والتقوى مما يقتضي سرعة توفية الأجر في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وأما بالنسبة للمذكورين في آية آل عمران التي نحن بصدد بيانها ، فإنه أكد سرعة الحساب ليدل على أنه سيعجل لهم أجرهم في الدنيا ، علاوة على ما أعد لهم في الآخرة من الأجر ، وخاصة ذكر أن هؤلاء لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

ومن يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً إنما يطلب عاجل الدنيا ، فقال ربنا إنه سيعجل للذين لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أجرهم في الدنيا ، علاوة على ما في الآخرة ، فالتوكيد مناسب من أكثر من وجه .

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ ﴾ والصبر عام ، صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية .

﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ أي: اصبروا على شدائد الحرب ، واثبتوا في مواجهة الأعداء. جاء في (الكشاف): «أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً»(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير): «المصابرة: الصبر في وجه صابر. وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس ، وأقربه إلى التزلزل ، وذلك أن الصبر في وجه

(١) الكشاف ١/ ٣٧١ وانظر: روح المعاني ٤/ ١٧٥ .

صابر آخر شديد على نفس الصابر ؛ لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه»[(١)] .

﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ أي: أقيموا في الثغور. والمرابطة نوع من الصبر[(٢)] .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ «في مخالفة أمره على الإطلاق ، فيندرج فيه جميع ما مر اندراجاً أولياً»[(٣)] .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ «أي: لكي تظفروا وتفوزوا بنيل المنْية ودرك البغية والوصول إلى النجح في الطلبة ، وذلك حقيقة الفلاح»[(٤)] .

وهذه الأوامر متدرجة في الشدة على حسب ما ذكر.

فالمصابرة أشد من الصبر ، والمرابطة أشد من المصابرة وأدوم ، وتقوى الله عامة في كل الأحوال.

ثم لننظر من ناحية أخرى:

إن هذه الآية كأنها في مقابل قوله سبحانه: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ .

ونظيرته في الشدة.

فقوله:

﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ بمقابل الذين هاجروا .

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢٠٨.
(٢) روح المعاني ٤/ ١٧٥ .
(٣) روح المعاني ٤/ ١٧٥ .
(٤) روح المعاني ٤/ ١٧٥ .

﴿ وَصَابِرُوا۟ ﴾ بمقابل قوله ﴿ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى ﴾ .

﴿ وَرَابِطُوا۟ ﴾ بمقابل ﴿ وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فهو بمقابل قوله : ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ .

ثم إن هذه الآية مناسبة لأول السورة بعدها ، وهي مفتتح سورة النساء.
قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

فقد أمر المؤمنين بالتقوى في خاتمة آل عمران فقال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وأمر الناس عموماً بها في آية النساء فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾ .

ثم إنه في خواتيم آل عمران ذكر الذين اتقوا ربهم فقال : ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ ﴾ فذكر الرب .

ثم أمـر بتقوى الله في خاتمة السورة فقال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فذكر اسمه العلم (الله) .

وكذلك ذكر في مفتتح سورة النساء ، فذكر الرب وذكر لفظ الجلالة فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ .

ثم قال بعدها : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾ .

فذكرهما ههنا كما ذكرهما ثم ، وهو من لطيف التناسب .

* * *

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

وجه مناسبتها لما قبلها ، وهي سورة الحديد :

«١ ـ أنه قال سبحانه في آخر سورة الحديد :

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وذكر من فضل الله العظيم في أول سورة المجادلة أنه سمع للمرأة التي تجادل رسول الله في زوجها ، وأنها تشتكي إلى الله ، فحفظها من التضييع ، وحفظ المسلمين من نحو هذا إلى يوم القيامة . . .

٢ ـ ذكر في أواخر سورة الحديد أن أهل الكتاب ابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم ، وذلك قوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الآية : ٢٧] .

وذكر في أول سورة المجادلة من الأمور المبتدعة التي لم يكتبها الله سبحانه ، بل أبطلها ، وهي الظهار. قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ »(١) .

---

(١) التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم ١٥١ ـ ١٥٢ .

وجاء في (روح المعاني) أن «وجه مناسبتها لما قبلها أن الأولى ختمت بفضل الله تعالى ، وافتتحت بما هو من ذلك .

وقال بعض الأجلة في ذلك: لما كان في مطلع الأولى ذكر صفاته تعالى الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ افتتح هذه بذكر أنه جل وعلا سمع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى. . . وذكر سبحانه بعد ذلك: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ الآية .

وهي تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ »[1] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] .

* * *

افتتحت السورة بالتي تجادل رسول الله في زوجها وتشتكي إلى الله ، والتحاور في ذلك ، وذلك أن هذه الآية نزلت في صحابية قيل إن اسمها خولة بنت ثعلبة ، ظاهر منها زوجها ، أي: قال لها: أنت عليّ كظهر أمي ، وكان الظهار يعد طلاقاً في الجاهلية ، فذهبت إلى رسول الله ﷺ

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٢ .

تشتكي أمرها ، فقال لها رسول الله ﷺ : «إنك قد حرمت عليه» ، وهي تقول له : والله ما ذكر طلاقاً. ثم قالت : إني أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وإن لي صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك .

فأنزل هذه الآية ، وأنزل حكم الظهار بعدها[1] .

والملاحظ في هذه السورة أن طابعها في النجوى والمحاورات .

فقد ذكر النجوى بين الأفراد وعلم الله بهم أينما كانوا ، وأياً كان عددهم ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . . ﴾ [الآية : ٧] .

وذكر التناجي بالإثم والعدوان في الآية الثامنة .

ثم ذكر كيف يكون التناجي بين المؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الآية : ٩] .

وذكر أن النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا (١٠) .

وذكر حكم مناجاة الرسول (١٢ ـ ١٣) .

وذكر حالاً من موقف المنافقين في الحلف على الكذب للمؤمنين .

وهو حالة من حالات الحديث والمحاورات ، ثم إن النجوى حديث .

وذكر في آخر السورة حزب الله ، وأفراد الحزب بينهم حديث ومحاورات .

---

(١) انظر : فتح القدير ٥/ ١٧٧ .

كما ارتبط أول السورة بآخرها ، فإنه «بعد أن ذكر أمر التي سمع الله قول التي تجادل في زوجها والحكم في ذلك ، قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

وقال في أواخرها :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

فذكر في أول السورة أنهم كُبتوا .

وقال في أواخرها أنهم في الأذلين .

ثم ذكر في آخر السورة ما ينبغي أن يكون موقف المؤمنين من هؤلاء فقال : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ ﴿٢٢﴾ ﴾ فالمناسبة ظاهرة»[1] .

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ .

(قد) للتوقع والتحقيق والتقريب ؛ فإن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله شكواها ، وقد تحقق ذلك .

جاء في (الكشاف) : «فإن قلت : ما معنى (قد) في قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾؟ قلت : معناه التوقع ؛ لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها»[2] .

---

(١) التناسب بين السور في المفتح والخواتيم ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٦ .

وجاء في (روح المعاني): «و(قد) للتحقيق أو للتوقع ، وهو مصروف إلى تفريج الكرب لا إلى السمع لأنه محقق ، أو إلى السمع لأنه مجاز أو كناية عن القبول ، والمراد توقع المخاطب ذلك»[١].

وقد سمع الله شكواها وأجابها عن قرب في الوقت ، وليس بين شكواها والإجابة وقت بعيد. «والسماع مجاز عن القبول والإجابة»[٢].

قد تقول: لقد قال سبحانه ههنا ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾.

وقال في آل عمران: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

فقال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾.

فما الفرق؟

والجواب أن (لقد) آكد من (قد) لدخول لام جواب القسم عليها.

والقول في آل عمران أعظم في حق الله ، وهو كبيرة من الكبائر ، فقد قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ ولذا قال بعدها: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾، وإن الله توعدهم على ذلك بعذاب الحريق فقال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٣.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

فلما كان القول أعظم ، وقد توعدهم بالعذاب ؛ ناسب ذلك تأكيد السماع لإيقاع العقوبة ، فقال : ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ باللام الواقعة في جواب القسم ، والله أعلم.

﴿ وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

«واشتكاؤها إليه تعالى : إظهار بثها وما انطوت عليه من الغم والهم ، وتضرعها إليه عز وجل»[1] .

و(اشتكى) أبلغ من (شكا) فإنه على وزن (افتعل) وهو أبلغ من (فعل) ، ونظيره : جهد واجتهد ، وصبر واصطبر. وذلك أن هذا الأمر قد غمّها كثيراً وآذاها ، فبالغت في الشكوى. جاء في (التحرير والتنوير) : «والاشتكاء مبالغة في الشكوى ، وهي ذكر ما آذاه ، يقال : شكا وتشكى واشتكى. وأكثرها مبالغة (اشتكى)»[2] .

﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾ .

«وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده»[3] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ .

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٢ .
(٢) التحرير والتنوير - المجلد ١١ ج٢٨/ ٩ .
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٥ .

«أي: تعالى يسمع كل المسموعات ويبصر كل المبصرات على أتم وجه وأكمله. ومن قضية ذلك أن يسمع سبحانه تحاورهما، ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء، وسائر آثار التضرع.

والاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بما اشتهر به الاسم الجليل من وصف الألوهية، وتأكيد استقلال الجملتين»[١].

قد تقول: لقد قال سبحانه في غافر: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فأكد بـ (إن) وجاء بضمير الفصل (هو) وعرف الوصفين (السميع البصير).

في حين قال في آية المجادلة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ فلم يأت بضمير الفصل، ولم يعرف الوصفين.

فلم ذاك؟

والجواب أنه لما ذكر في آية غافر أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فبين أن علمه لا يشبهه علم، وذكر أن الله يقضي بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء، فبين أن قضاءه لا يشبهه قضاء، فليس في الوجود من يعلم كعلمه، ولا يقضي كقضائه، بين أن

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٤.

سمعه لا يشبهه سمع ولا بصره يشبهه بصر ، فكأنه هو السميع البصير وحده ، فقصر كمال السمع والبصر عليه سبحانه .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

وقد تقول : لقد قال سبحانه في الشورى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فعرف الوصفين السميع والبصير ، ولم يؤكد ذلك بـ (إن) .

فنقول : أما إنه عرف الوصفين فللقصر ، فكأن غيره ليس بسميع ولا بصير ، فهو الكامل في الوصفين ، وذلك أنه لما قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ناسب أن يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي : الكامل فيهما ، فقصر السمع والبصر عليه ؛ لأنه ليس كمثله شيء في هذين الوصفين وفي غيرهما .

قد تقول : ولِمَ لَمْ يؤكد بـ (إن) كما فعل في آية غافر؟

والجواب : أن السياق ليس في السمع ولا في البصر ، فلم يقتض التوكيد ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ .

وقد تقول : والسياق في غافر ليس في السمع والبصر أيضاً ، فلم أكد؟

فنقول : إنه لما قال : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ ، والأعين آلة البصر ، دل على أنه البصير ؛ لأن الذي يعلم خائنة الأعين لابد أن يرى الأعين ، فهو لا يرى الأعين فقط ، بل يراها ويعلم خائنتها أيضاً ،

كالغمز والنظر إلى غير المحرم واستراق النظر وغيره.

وقال: ﴿ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ ومما يخفى في الصدور إذا أظهره فإنما يظهره بالقول، والقول مما يسمع، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣].

فذكر إسرار القول والجهر به، والقول يسمع.

ثم إن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ يدل على السمع والبصر، فالقضاء يحتاج إلى سمع وبصر. جاء في (روح المعاني): «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وما تخفي الصدور... وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعاً بصيراً»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تقرير لقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر»[2].

وقد ذكر طرفاً مما يقال ويسمع ويبصر في سياق الآية. من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الآية: ١٤].

والمدعو لابد أن يسمع من يدعوه حتى يجيبه.

وقوله: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ ﴾ [الآية: ١٦]، ومعنى ذلك أنه يراهم لا يخفى عليه منهم شيء.

---

(١) روح المعاني ٢٤/ ٦٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٥٧.

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ولابد للمشفوع عنده أن يسمع الشفيع.

فالسياق - كما هو ظاهر - في الدلالة على السمع والبصر.

كما أنه تعريض بآلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر وليس لها شيء أصلاً وهي عاجزة عن كل شيء.

والله له الكمال الأعلى ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٩١].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾.

* * *

ذكر في هذه الآية حقيقة الظهار، وذكر في الآية بعدها حكم الظهار.

فذكر في هذه الآية أن الذين يظاهرون من نسائهم فيقول أحدهم لزوجه: أنت عليّ كظهر أمي، كلامهم باطل، وهو عار عن الحقيقة أولاً، فالزوجة ليست أمّاً، والأزواج لسن أمهات، وإنما أمهاتهم من ولدنهم.

ولم يقل: (بل أمهاتهم من ولدنهم) وإنما قال ذلك على سبيل الحصر، فجاء بـ (إنْ) و(إلا) فقال: ﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ حصراً.

ولم يكتف بذكر هذه الحقيقة المعلومة ، وإنما ذكر فظاعة هذا القول وقبحه فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ .

فذكر أولاً أنه منكر من القول ، أي: هو قول ينكره الشرع والعقل والطبع ، وأنه زور ، أي: كذب باطل منحرف عن الحق. جاء في (البحر المحيط): «جاء النفي بقوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ أي: حقيقة إلا اللائي ولدنهم.

فقول المظاهر منكر من القول تنكره الحقيقة وينكره الشرع ، وزور كذب باطل منحرف عن الحق»[1] .

وقد أكد ذلك بـإن واللام فقـال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ لبيان شناعة هذا القول. جاء في (التحرير والتنوير): « ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ تأكيد الخبر بإن واللام للاهتمام بإيقاظ الناس لشناعته»[2] .

لقد جاءت في الآية تأكيدات عدة لبيان بطلان الظهار وشناعته.

فقال أولاً: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) ، ولم يقل (لسن أمهاتهم) فتكون الجملة فعلية. والجملة الاسمية آكد وأثبت كما هو معلوم.

وقـال: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾ بالحصر ، وهـو تـأكيد ، ثم

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٣٢ وانظر: روح المعاني ٢٨/ ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٣.

إنه نفى بـ (إن) وليس بـ (ما)، فلم يقل (ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم)، و(إنْ) أقوى من (ما) في النفي[١].

ثم أكد القول بـ (إنّ) واللام فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾.

ثم جمع المنكر والزور، فجمع القبح كله.

ثم قال ﴿ مِنكُم ﴾ لتقبيح فعلتهم عند أقوامهم ومن هم منهم؛ لينكروا عليهم ويقبحوا فعلتهم، لينأوا عن ذلك ويبتعدوا عنه. جاء في (روح المعاني):

«وإقحام (منكم) في الآية للتصوير والتهجين؛ لأن الظهار كان مخصوصاً بالعرب»[٢].

لقد قال هاهنا: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ فقال: ﴿ ٱلَّٰٓـِٔى ﴾ بالهمز، ولم يقل: (إلا اللاتي ولدنهم) ذلك أن القرآن استعمل ﴿ ٱلَّٰٓـِٔى ﴾ بالهمز في حالتي الظهار والطلاق فقط، ولم يستعملها في غير ذلك.

قال تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٥٠].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فقال: ﴿ ٱلَّٰتِىٓ ﴾ ولم يقل: (اللائي) وذلك في غير حالتي الطلاق أو

---

(١) انظر: كتابنا (معاني النحو) ٤/ ١٧٢.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٤.

الظهار. وهذا في جميع القرآن «وكأن ذلك لثقل الهمزة ، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة ، وهي حالات المفارقة.

ومن الطريف أن بناء (اللائي) وجرسها يوحي بذلك ، فكأنها مشتقة من اللأي ، وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة.

والمظاهر والمطلق محتبس عن امرأته مبطئ عنها ، وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين»(١) .

وهذا من لطيف الاستعمال.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

أي: يعفو عما سلف ويغفره له إذا لم يعد صاحبه لفعله ، وكما يشاء ربنا سبحانه.

وفرقوا بين العفو والمغفرة فقالوا:

إن العفو ترك العقوبة والتجاوز عن الذنب(٢) .

والمغفرة ستر الذنب وتغطيته(٣) .

فقد يعفو الشخص ولا يغفر ، أي: يعلن سوء فعلة الفاعل ويظهرها ، ثم يتركه فلا يعاقبه فيعفو عنه.

فالعفو لا يخالف التقريع على الذنب وإشهاره.

---

(١) انظر: كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ٦٠ ـ ٦١.
(٢) مفردات الراغب (عفا) ، لسان العرب (عفا).
(٣) انظر: لسان العرب (غفر).

وأما المغفرة فهي ستر الذنب فلا تذكره له ، أو قد تذكره له ولكن لا تفضحه به. فقد قال تعالى بعد أن ذكر ما فعله بنو إسرائيل من اتخاذ العجل مبكتاً لهم : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٢] .

فذكر لهم ولغيرهم سوء فعلتهم ، ثم قال: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ .

وقال ربنا مخاطباً أصحاب الرسول ﷺ بعد معركة أحد ، مبيناً ما لا ينبغي من فعلهم.

فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

ثم إن العفو قد لا يكون عن ذنب أو سوء ، وإنما هو عما هو خلاف الأولى، كما قال تعالى لخليله وحبيبه ﷺ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣] .

أما المغفرة فهي ستر الذنب وعدم فضحه به. جاء في (الفروق اللغوية): «الفرق بين العفو والمغفرة قد فرق بينهما بأن العفو ترك العقاب على الذنب.

والمغفرة: تغطية الذنب بإيجاب التوبة. . .

وقيل: العفو: إسقاط العذاب.

والمغفرة أن يستر عليه بعد ذلك جرمه صوناً له عن الخزي والفضيحة. فإن الخلاص من عذاب النار إنما يطلب إذا حصل عقيبه الخلاص من عذاب الفضيحة.

فالعفو: إسقاط العذاب الجسماني.

والمغفرة: إسقاط العذاب الروحاني.

والتجاوز: يعمهما»[1].

وقدم اسمه (العفو) على (الغفور) وكأن ذلك إشارة إلى تقديم العفو على المغفرة، فبدأ بما هو أخف على من أسيء إليه، لأن المغفرة هو العفو وزيادة، إذ هي ترك العقوبة مع الستر.

ثم إن العفو - كما ذكرنا ـ قد يكون عما هو خلاف الأولى وليس عن معصية، فهو أعم، والله أعلم.

وحيث اجتمع العفو والمغفرة قدم العفو، وحيث اجتمع الاسمان الكريمان قدم اسمه العفو.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠].

---

(١) الفروق اللغوية ١/ ٣٦٣.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣] .

وجاء بالاسمين الجليلين على صيغة المبالغة للدلالة على عظيم عفوه ومغفرته ، نسأله سبحانه أن يعفو عنا ويغفر لنا إنه هو الغفور الرحيم.

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ .

* * *

بعد أن ذكر حقيقة الظهار وفظّعه ذكر حكم الظهار فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ولم يقل: (والذين يظاهرون منكم) كما قال في الآية السابقة ؛ لأنه أراد حكم الذين يظاهرون على العموم ليس مختصاً ذلك بزمن ولا بقوم معينين. جاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ وبعده: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم في الجاهلية الظهار ، فقيدهم بقوله: ﴿ مِنكُم ﴾ وبقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ .

ثم بين حكم الظهار للناس عامة فعطف عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ فجاء في كل آية ما اقتضى معناه»[1] .

وجاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ :

---

(١) البرهان في متشابه القرآن لمحمد بن حمزة الكرماني ٣٠٩ .

«عطف على جملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه ، وكان مقتضى الكلام أن يقال: فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة ، فيكون عطفاً على جملة الخبر من قوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ . . . »[1] .

ويبدو - والله أعلم ـ أنه كرر الاسم الموصول فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ولم يقل: (فإن يعودوا لما قالوا) لئلا يخص الحكم الأولين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم ﴾ فيظن ظان أو يقول: إن هذا الحكم مختص بمن يظاهر منهم ، يعني: العرب أو غيرهم ممن يخصه قوله (منكم) ، فأطلق التعبير ليشمل كل مظاهر على العموم.

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ .

المشهور أن المقصود بذلك العزم على الوطء[2] وإرادته.

جاء في (التحرير والتنوير): «استعمل فعل ﴿ يَعُودُونَ ﴾ في إرادة العودة... على نحو قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي: إذا أردتم القيام ، وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ »[3] .

وعلى كل قول فإن الحكم واحد وهو ما ذكره ربنا ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ أو غير ذلك مما ذكره رب العزة في الآية التي بعدها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٥ .

(٢) انظر: روح المعاني ٢٨/ ٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦ .

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ .

أي : ما ذكره ربنا من الحكم بالكفارة والخطاب للمؤمنين .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

«أي : عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها ، فحافظوا على حدود ما شرع لكم ، ولا تخلّوا بشيء منها»[1] .

قد تقول : لقد قال ربنا في آية المجادلة هذه : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فلم يؤكد الجملة .

وقال في سورة هود : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١ ﴾ فأكد الجملة بـ (إن) فقال : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب أنه أكد في آية هود بـ (إن) ؛ ذلك أنه ذكر العمل وذكر أن كلاًّ ليوفينهم ربك أعمالهم فلا يترك أحداً من المكلفين. كما أكد الفعل بنون التوكيد الثقيلة فقال: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾. وجمع العمل فقال: ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ، فكان التوكيد بإن وباللام في (لما) ولام القسم ونون التوكيد في ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ ، وجمع العمل فقال: ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فلا يترك عملاً ولا يترك أحداً من المكلفين.

فعمت آية هود كل الأعمال حسنها وسيئها ، وعمت جميع المكلفين.

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٣ .

وأما آية المجادلة فهي في الظهار ، والظهار أمر واحد من المنكرات ، والمظاهرون قلة .

فاختلف السياقان من حيث كمية الأعمال ونوعها .

ففي آية هود عمت الآية جميع الأعمال فلم تترك عملاً .

وأما ما في آية المجادلة فهو في عمل واحد وهو الظهار .

وفي آية هود عمت الآية جميع الأعمال من حيث النوع ، فشملت الحسن والقبيح .

وأما ما في آية المجادلة فهو في نوع واحد من المنكرات وهو الظهار .

كما اختلف الأمران من حيث عدد أصحاب العمل .

ففي آية هود عمت الآية جميع المكلفين بلا استثناء ، مؤمنهم وكافرهم .

وأما ما في آية المجادلة فهي في قسم واحد من المكلفين وهم المظاهرون .

وهم قلة قليلة بالنسبة إلى عموم المكلفين .

فاختلف السياقان من كل وجه .

فناسب التوكيد آية هود ؛ بخلاف آية المجادلة .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤].

* * *

أي: فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع ذلك فعليه إطعام ستين مسكيناً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكره من الحكم في كفارة الظهار.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لتؤمنوا بالله وتصدقوا بما جاء به رسوله، وتعملوا بما يأمركم به، وترفضوا ما كنتم عليه من أحكام الجاهلية.

وقوله ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يدخل فيه اتباع كل الأحكام التي يأمر بها الله ورسوله، والانتهاء عما ينهى عنه الله ورسوله، ودخل فيه ما ذكره من حكم الظهار.

فهو لم يقل: (ذلك لتكفّروا عنكم إذا ظاهرتم من نسائكم وتعودوا إلى أزواجكم) وإنما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيدخل فيه كل ما يأتي عنهما.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعديها «فالزموها وقفوا عندها»[1].

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: للذين يتعدونها ولا يعملون بها عذاب

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٣٢.

أليم[١]. «وأطلق الكافرين على متعدي الحدود تغليظاً لزجره»[٢].

قد تقول: لقد قال في الآية السابقة: ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ فقال: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ بالخطاب للجمع.

وقال في هذه الآية: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فكأنه خطاب للمفرد، مع أنه قال: ﴿ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بصيغة الجمع.

فلم ذاك؟

والجواب أنه يصح في حرف الخطاب في اسم الإشارة مراعاة المفرد ومراعاة المخاطب؛ نوعاً وعدداً.

فيصح في كل المخاطبين أن تقول (ذلكَ) بحرف الخطاب المفتوح أياً كان المخاطب، مفرداً أو غير مفرد، مذكراً أو مؤنثاً.

كما يصح أن تطابق فتقول (ذلكَ) للمفرد المذكر، و(ذلكِ) بكسر الكاف للمخاطبة المؤنثة، و(ذلكما) لخطاب المثنى، و(ذلكم) لجماعة الذكور، و(ذلكنّ) لخطاب جماعة الإناث.

وكلا الاستعمالين وارد في القرآن الكريم.

أما الاختيار في الآيتين فلعل من أسباب ذلك أن من معاني كاف الخطاب في الجمع والإفراد أنه للتمييز بين مجموعتين، فقد تكون

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٨.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٠.

مجموعة أكبر من مجموعة ، فيستعمل لخطاب الجمع الكثير بصورة الجمع وللقليل بصورة الإفراد[(١)] .

فاستعمل ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ للجماعة التي هي أكثر ، فقد استعملها لعموم المظاهرين ، واستعمل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لمن هم أقل ، وهم الذين لا يجدون أو لا يستطيعون فقال :

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ﴾ .

فهم قسم من المظاهرين ، وهم غير المستطيعين منهم .

فاستعمل ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ لمن هم أكثر .

واستعمل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لمن هم أقل .

والله أعلم .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ .

أي : يعادونهما «والمحادّة : المعاداة والمخالفة في الحدود»[(٢)] ، جاء في (تفسير البيضاوي) : « ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ يعادونهما ،

---

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) ١/ ٩٨ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤ .

فإن كلاً من المتعاديين في حد غير حد الآخر ، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما»[١] .

وجاء في (روح المعاني): «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: يعادونهما ويشاقّونهما ؛ لأن كلاً من المتعاديين في حد وجهة غير حد الآخر وجهته ، كما أن كلاً منهما في عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه»[٢] .

واتصال هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ في الآية السابقة في غاية الظهور والحسن. جاء في (روح المعاني): «وفي ذكر المحادّة في أثناء ذكر حدود الله تعالى دون المعاداة والمشاقّة حسن موقع جاوز الحد»[٣] .

﴿ كُبِتُوا۟ ﴾ : أُخزوا وأُذلّوا. والكبت: الصرف والإذلال ، يقال: كبت الله العدو ، أي: صرفه وأذلّه وأخذه بالعذاب[٤] .

قيل: إن ذلك إخبار عما حدث لمشركي قريش في بدر والخندق. وقيل: هو إخبار بالفعل الماضي عما سيحدث لهم في المستقبل ، وكأن الأمر لتحققه قد وقع فعلاً ، وهي بشارة للمؤمنين.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ نزلت في

(١) تفسير البيضاوي ٧٢٠.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٠.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ٢٠.
(٤) انظر: لسان العرب (كبت).

مشركي قريش ، أُخزوا يوم الخندق بالهزيمة ، كما أخزي من قاتل الرسل من قبلهم . . . وقيل : يوم بدر . . .

قيل : و ﴿ كُبِتُواْ ﴾ بمعنى : سيكبتون ، وهي بشارة للمؤمنين بالنصر ، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه»[1] .

وكلاهما صحيح وقد حصل .

﴿ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ «من كفار الأمم الماضية المحادين لله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام»[2] .

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ .

أي : آيات واضحات «فيمن حادّ الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم .

وقيل آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به»[3] .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الآية : ٩٩] .

فقال في المجادلة : ﴿ وَقَدْ ﴾ .

وقال في آية البقرة : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بذكر اللام الواقعة في جواب القسم .

وقال في آية المجادلة : ﴿ أَنزَلْنَآ ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ٢٣٤ وانظر : روح المعاني ٢٨/ ٢٢ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٢ .

(٣) روح المعاني ٢٨/ ٢٢ .

وقال في آية البقرة: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ .

فجعل الإنزال عاماً في المجادلة.

وخصصه بالإنزال إليه في آية البقرة.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه.

فإن السياق في آية البقرة في الكلام على اليهود الذين يؤمنون بما أنزل على موسى ويكفرون بما أنزل على محمد عليهما السلام.

فهم يقرون بعموم الإنزال على الرسل المذكورين عندهم وينكرون الإنزال على محمد ، والكلام إنما هو في هذا السياق.

فقد قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الآية: ٨٩] .

وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ ﴾ [الآية: ٩١] .

وقال: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ٩٧] .

وذلك كما ذُكر أن يهود سألت رسول الله ﷺ أسئلة ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم ليتابعنه على الإسلام ، ثم أجابهم عنها ، ثم

قالوا له بعد ذلك: أنت الآن حدثنا عن وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك.

فقال: إن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه.

قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. ثم قالوا له: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ... ﴾[١].

فهم يقرون بالإنزال على العموم، وينكرون الإنزال على سيدنا محمد، فناسب أن يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾.

ولو قال: (ولقد أنزلنا آيات بينات) ولم يقل: (إليك) لم يدل على أن المقصود أن الإنزال إنما هو إليه نصاً صريحاً، ولظن ظانّ أو يدّعي مدّع أن المقصود بالسياق هو موسى عليه السلام كما أخبر عنه في آيات عديدة أنه جاءهم بالبينات من نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [العنكبوت: ٣٩] وقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٩٢] وهي في السياق نفسه.

فكان المناسب أن يقول: (إليك) ليبين المقصود، ولو لم يذكره لالتبس الأمر ولم يتعين المقصود.

وأما في المجادلة فمن أول السورة ما يدل على أن الإنزال إليه. وقد قال قبل الآية: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، وقال في الآية نفسها: ﴿ إِنَّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/١٢٩ طبع بدار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فأخبر عنه أنه رسول الله ، فلاشك أن الإنزال إنما هو إليه ، فلا يستدعي ذكر (إليك) ليعلم أنه رسول الله .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه قال في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ ﴾ .

ويعني بالذين من قبلهم كفار الأمم الماضية المحادين لله ورسله. ولاشك أنه سبحانه أنزل إلى الرسل الماضية آيات بينات ، فناسب عدم تخصيص الإنزال بأنه إليه ؛ ليعم ما أنزل إليه وما أنزل من قبله ، وهم الذين أشار إليهم في الآية .

فكان العموم أولى وأنسب بالسياق .

ومن ناحية ثالثة أن الإنزال إنما هو إلى الرسل ولأممهم ليعملوا بما أنزل إليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ ﴾ [الأنبياء: ١٠] .

وقال : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

ففي آية المجادلة أطلق الإنزال ليعم الإنزال إلى الرسول وإلى الرسل قبله وإلى الذين أنزل إليهم حكم الظهار الذي ورد في السياق ليعملوا به .

فناسب الإطلاق من كل ناحية .

وقال في آية البقرة : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فقال : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ باللام الواقعة في جواب القسم ؛ لأن المقام يستدعي ذلك ، فإن اليهود كانوا

ينكرون أنه أنزل عليه الوحي ، كما هو ظاهر في السياق ، فأكد الإنزال باللام وقد.

بخلاف آية المجادلة ، فالكلام مع المؤمنين ، وحكم الظهار إنما أنزل إليهم ؛ فلم يستدع ذلك أن يؤكد.

فناسب كل تعبير سياقه.

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

أي: يخزيهم ويذهب بكبرهم ، فإن الذين يحادّون الله ورسوله يناسب أن يكون العذاب مخزياً لهم.

ونحو ذلك ما جاء في التوبة وهو قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٦٣] .

فقد قال فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وذلك أنهم حادوا الله ورسوله.

وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فالعذاب المهين إنما هو مخزٍ لهم.

قد تقول: لقد قال في الآية السابقة: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقال في هذه الآية: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

فلم ذاك؟

والجواب ظاهر ، فقد ذكر الإيمان في الآية السابقة فقال: ﴿ ذَٰلِكَ

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فناسب أن يقول في خاتمتها: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فذكر العذاب الأليم للكافرين ؛ لأن الكفر نقيض الإيمان.

وأما هذه الآية فهي في الذين يحادون الله ورسوله ، فناسب أن يكون العذاب مهيناً لهم. جاء في (البرهان في متشابه القرآن): «قوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وبعده: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان ، فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء الكافرين.

والثاني متصل بقوله (كبتوا) وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾»[1].

* * *

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الآية: ٦].

* * *

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

متعلق بما قبله ، والمعنى: وللكافرين عذاب مهين يوم يبعثهم الله ، بمعنى: أن العذاب المهين إنما هو يوم يبعثهم الله ، على اختلاف التقدير في المتعلق به ، أهو على معنى: وللكافرين يوم يبعثهم الله عذاب مهين ،

---

(١) البرهان في متشابه القرآن للكرماني ٣٠٩ وانظر: كشف المعاني لابن جماعة ٣٥٣.

أي: أن اليوم متعلق بالاستقرار الذي تعلق به (للكافرين) الذي هو خبر عن العذاب.

أم هو متعلق بـ (مهين) أي: على معنى: وللكافرين عذاب مهين يوم يبعثهم الله، أي: أن الإهانة يوم يبعثهم الله.

أو على أنه منصوب بإضمار (اذكر) أي: اذكر ذلك اليوم. أو على أنه منصوب بـ (يكون) مضمراً على أنه جواب لمن سأل: متى يكون عذاب هؤلاء؟ فقيل له ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ﴾ أي: يكون في يوم يبعثهم.[(١)]

ولا يجيز النحاة على العموم أن يكون (اليوم) متعلقاً بالعذاب في نحو هذا التعبير؛ ذلك لأن المصدر لا يعمل عندهم إذا فصل بينه وبين معموله بتابع، ومن ذلك الوصف، وما ورد من ذلك مؤول[(٢)].

واستثنى بعضهم الظرف من ذلك[(٣)].

وعلى أية حال فإن العذاب المهين إنما هو في ذلك اليوم.

﴿ جَمِيعًا ﴾.

حال، وتحتمل أن تكون الحال هذه مؤكدة، أي: يبعثهم كلهم، كما تحتمل أن تكون مؤسسة، أي: يبعثهم مجتمعين[(٤)].

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٤، روح المعاني ٢٨/ ٢٢-٢٣، الكشاف ٣/ ٢٠٨.
(٢) انظر: همع الهوامع ٢/ ٩٣، شرح الأشموني ٢/ ٢٨٦، شرح التصريح ٢/ ٦٣، وانظر: البحر المحيط قوله: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ ٣/ ٢٢.
(٣) انظر: البحر المحيط ٦/ ٢٥٣.
(٤) انظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٤، الكشاف ٣/ ٢٠٨، روح المعاني ٢٨/ ٢٣.

والمعنيان مرادان ، فربنا يبعثهم كلهم ويجمعهم في صعيد واحد ، وهو من التوسع في المعنى.

﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ .

«تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم ، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد»[١] .

جاء في (روح المعاني): « ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ من القبائح ببيان صدورها عنهم ، أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم ، وزيادة في خزيهم ونكالهم»[٢] .

﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ .

«أحصاه بجميع تفاصيله وكميته وكيفيته وزمانه ومكانه»[٣] وقد «أحاط به عدداً لم يفته منه شيء»[٤] .

﴿ وَنَسُوهُ ﴾ .

«لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي ، وإنما تحفظ معظمات الأمور»[٥] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٨ .
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٣ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤ .
(٤) الكشاف ٣/ ٢٠٨ .
(٥) الكشاف ٣/ ٢٠٨ .

وجاء في (البحر المحيط): «ونسوه لاستحقارهم إياه واعتقادهم أنه لا يقع عليه حساب»[١].

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾.

«لا يغيب عنه أمر من الأمور أصلاً»[٢].

قد تقول: لقد قال في آية المجادلة هذه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾.

وقال في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ ﴾:

فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ فأكد بـ (إن) دون آية المجادلة.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه من أكثر من جهة:

١ ـ فقد ذكر في آية الحج جميع الملل من الذين آمنوا ومن اليهود والنصارى وغيرهم ممن ذكرهم في الآية.

أما في آية المجادلة فذكر الذين يحادّون الله ورسوله، وهم الذين في زمن الرسول. ثم قال: ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾.

فقد جمع في آية الحج الذين آمنوا مع أهل الأديان والملل الأخرى وغيرهم من المشركين.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٣.

وواضح أن الذين يفصل بينهم في آية الحج أكثر بكثير ، فإن آية المجادلة في الذين يحادّون الله ورسوله ، وهم مجموعة قليلة بالنسبة إلى المذكورين في آية الحج .

٢ ـ ذكر في آية المجادلة أنه ينبئهم بما عملوا .

وذكر في آية الحج أنه يفصل بينهم ، والفصل أوسع من مجرد التنبيء .

فإنه ينبئ ثم يفصل ؛ لأن من مقتضيات الفصل التنبيء .

٣ ـ قال في آية المجادلة : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ فلم يؤكد الفعل .

وقال في آية الحج : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ فأكد ذلك بإن .

٤ ـ ذكر في آية المجادلة ماعملوه ونسوه فقال : ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

أما في آية الحج فالفصل يكون فيما ذكروه ومانسوه من الأعمال .

فهو أعم وأشمل .

فناسب التوكيد في آية الحج ، والله أعلم .

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر شهادته سبحانه على كل شيء قدم (على كل شيء) على الشهادة فيقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

أما إذا لم تكن الشهادة على كل شيء فيقدم الشهادة على ذلك

البعض فيقول: ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٨] ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦]. ذلك أن الشهادة على كل شيء أمر عظيم متسع لا يترك شيئاً إلا كان شهيداً عليه، فيقدم (على كل شيء) للأهمية.

أما إذا لم تكن الشهادة على كل شيء فهي ليست بمنزلة تلك في الاتساع والإحاطة فلا يقدم. ثم إنه سبحانه وحده الشهيد على كل شيء، وليست ثمة ذات أخرى شهيدة على كل شيء.

أما نحو قوله: ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أو ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾ فقد يكون هناك من يشهد على عملهم أو فعلهم.

فناسب التقديم في نحو قوله: ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ دون غيره.

* * *

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

* * *

مناسبة هذه الآية للآية قبلها مناسبة ظاهرة، فإنه لما ذكر سبحانه في الآية السابقة أن الله يبعث الكافرين جميعاً فينبئهم بما عملوا دل ذلك على علمه سبحانه؛ فإن الله أحصى ما عملوه ونسوه.

ثم إنه لما ذكر فيها شهادته على كل شيء فقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ شَهِيدٌ ﴾ ناسب ذلك أن يذكر في هذه الآية علمه بما في السموات وما في الأرض وما يتناجى به الناس ويعلم ما عملوه، وليس العلم بذلك

فقط ، وإنما هو معهم أينما كانوا ، وإنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، كما ذكر في الآية قبلها أنه ينبئهم بما عملوا ، ثم ذكر أن الله بكل شيء عليم.

فذكر في الآية السابقة شهادته على كل شيء ، وذكر في هذه الآية علمه بكل شيء.

فهو سبحانه يعلم ويشهد كل شيء ، ولئلا يظن أنه يعلم عن طريق الإخبار ذكر سبحانه أنه على كل شهيد ، فهو يشهد كل شيء وعليم بكل شيء ، فاستوفى صفات الكمال في العلم.

فقوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ يدخل في قوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فذكر في هذه الآية معيته وعلمه سبحانه .

ثم إن المعية قد تكون أقرب من المشاهدة والشهود ، وهو الحضور ، فقد تشاهد الشيء وأنت بعيد عنه ، وقد تشهد الجماعة ولست معهم ، فذكر أنه معهم.

فذكر علمه ما في السموات وما في الأرض.

وذكر معيته لخلقه .

وذكر علمه بكل شيء.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: ألم تعلم، وفيها معنى التعجيب[١]. وهنا تعجيب من سعة هذا العلم وإحاطته بكل شيء، فإنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض، ويعلم كل شيء. جاء في (روح المعاني): «قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى، أي: ألم تعلم أنه عز وجل يعلم ما فيهما من الموجودات، سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما»[٢].

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ .

قوله: ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ يدل على الاستمرار في كل ما يكون من ذلك، وليس ذلك في وقت معين أو حالة معينة أو مكان معين.

وجاء بـ ﴿ مِن ﴾ فقال: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ للدلالة على الاستغراق، فلا تكون نجوى من أي عدد كان إلا والله معهم «أو على أن المعنى: ما يكون شيء من النجوى»[٣].

وقيل في تخصيص العددين بالثلاثة والخمسة أكثر من وجه:

«(أحدها) أن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجي مغايظة للمؤمنين

---

(١) انظر: لسان العرب (رأي)، وانظر: الكشاف ١/ ٢٨٦ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، معاني النحو ٢/ ١٣.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٣.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ٢٣.

على هذين العددين ثلاثة وخمسة... فالآية تعريض بالواقع على هذا»[١].

«أو لأن الله وتر يحب الوتر، والثلاثة أول الأوتار، أو لأن التشاور لابد له من اثنين يكونان كالمتنازعين، وثالث يتوسط بينهما»[٢].

جاء في (تفسير الرازي) في هذه الآية: «إن أقل مالابد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة، حتى يكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما، فحينئذ تكمل تلك المشورة ويتم ذلك الغرض.

وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشاورة فلابد فيهم من واحد يكون حكماً مقبول القول؛ فلهذا السبب لابد وأن تكون أرباب المشاورة عددهم فرداً.

فذكر سبحانه الفردين الأولين، واكتفى بذكرهما تنبيهاً على الباقي»[٣].

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

فذكر النجوى أولاً، ثم ذكر العمل بعد فقال أولاً: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ وقال بعد: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ فذكر النجوى والعمل، فلا يغيب عنه العمل، كما لا تغيب عنه النجوى.

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٢٤، وانظر: تفسير البيضاوي ٧٢١.

(٢) تفسير البيضاوي ٧٢١.

(٣) تفسير الرازي ١٠/ ٤٩.

لقد قال في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ﴾ .

فجاء بـ﴿ ثُمَّ ﴾ .

وقال في الآية السابقة: ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ ﴾ .

فجاء بالفاء فقال: (فينبئهم).

ذلك أن هذه الآية فيمن هم في الدنيا فقال: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ﴾ .

فجاء بـ﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على التراخي.

أما الآية السابقة فهي في الآخرة، فقد قال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم ﴾ .

فجاء بالفاء الدالة على التعقيب، وذلك لأنهم في يوم القيامة عند البعث.

فناسب كل تعبير موضعه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أكد علمه بكل شيء، وهذا التأكيد مناسب لما ذكر علمه بما في السموات وما في الأرض وما يكون من النجوى والعمل، ومناسب لما ذكره في الآية السابقة من شهادته على كل شيء.

قد تقول: لقد أكد ربنا سبحانه في هذه الآية علمه بكل شيء فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فأكده بـ﴿ إِنَّ ﴾ .

وقد يقول: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا يؤكد، وذلك نحو ما جاء في

آية الدَّين من سورة البقرة ، فقد قال سبحانه في الآية : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

ونحو قوله سبحانه في آية النور : ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥] .

وغير ذلك من الآيات .

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل ما ورد من نحو ذلك ليس في العلم الشامل ، فإن آية الدين إنما هي في كتابة الدين والإشهاد في المبايعات ، وليس السياق في سعة علم الله وإحاطته بكل شيء ، فلم يؤكد .

وكذلك في آية النور وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ .

إلى قوله : ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ ﴾ .

والسياق ظاهر أنه ليس في إحاطة علم الله بكل شيء وعلمه بكل شيء .

قد تقول : ولكنه قال في آية أخرى : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [النور: ٦٤] .

فقال : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ مع أن السياق شبيه بآية المجادلة .

فنقول: إن السياق مختلف.

فقد ذكر في آية النور هذه أنه له ما في السموات والأرض، فذكر أن له ما فيهما، ولم يذكر علم ما فيهما.

بخلاف ما جاء في آية المجادلة، فقد قال فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

فأكد علمه ما فيهما.

وقال في آية النور: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ والخطاب لصحابة الرسول ﷺ فإن السياق فيهم، فقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ... ﴾ [الآية: ٦٢].

ثم قال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾.

ثم قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الآية: ٦٤].

فالمذكورون في آية النور جزء من المذكورين في آية المجادلة، وهم جميع الناس.

فناسب التوكيد في آية المجادلة.

وهكذا كل ما ورد في نحو ذلك مما هو غير مؤكد؛ فإنه ليس في العلم الشامل المحيط.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه ، والله أعلم .

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ .

* * *

قيل : «كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم ، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين ، وتواص بمعصية الرسول ومخالفته»[١] .

و﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : الهمزة فيه للتعجيب من حالهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على تكرار عودهم واستمرارهم فيه[٢] . وجاء بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ ليدل على التراخي في الرتبة ، فإن العود بعد النهي أدل على المعصية ومخالفة الأمر ، وأدعى إلى التشنيع عليهم ومعاقبتهم. جاء في (التحرير والتنوير) : «و﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ للتراخي الرتبي ؛ لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى ؛ لأن ابتداءها كان إثماً لما اشتملت عليه نجواهم

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٩ وانظر : البحر المحيط ٨/ ٢٣٦ ، روح المعاني ٢٨/ ٢٦ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٩ ، روح المعاني ٢٨/ ٢٦ .

من نوايا سيئة نحو النبي ﷺ والمسلمين.

فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها فقد زادوا بها تمرداً على النبي ومشاقة للمسلمين»[١].

وقال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يقل: (ثم يعودون إليها) أو (لها)؛ لأن النهي ليس عن أصل النجوى، وإنما النهي عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهذا هو ما نهوا عنه كما جاء في الآية، فقال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لبيان أن المقصود أن النهي إنما هو عن هذا النوع من النجوى، ولكنهم يعودون إلى ما نهوا عنه، وليس عن النجوى على العموم.

وقال: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ﴾ أي: يتناجون بما هو إثم في نفسه.

وحقيقة التناجي أنه بما يؤدي إلى الإثم، وليس هو الإثم نفسه، ولكنه قال ذلك مبالغة، فكأن هذا التناجي هو الإثم بعينه.

وقدم الإثم وهو عام يشمل ما بعده وغيره مما هو إثم.

ثم ذكر العدوان، وهو أخص؛ لأنه حالة من حالات الإثم، وقد يكون أشد مما قبله لأنه تعدّ على الآخرين.

ثم قال: ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ وهو أخص؛ لأنه خاص بالرسول، أما العدوان فقد يكون عاماً.

وذكر صفة الرسالة، ولم يقل: (ومعصيتك) بكاف الخطاب، كما

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨/٢٨.

قال: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ للدلالة على عظم المعصية ؛ فإنها معصية لمن أرسله الله ، وهذه معصية كبيرة ؛ فإن المعصية قد تكون بحسب المعصي ، فإن معصية الملك أو معصية رسول الملك ليست كمعصية واحد من عموم الناس.

فتدرج من العموم إلى الخصوص.

جاء في (نظم الدرر): « ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أي: بالشيء الذي يكتب عليهم به الإثم بالذنب وبالكذب وبما لا يحل.

ولما ذكر المطلق أتبعه المقيد بالشدة فقال: ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أي: العدو الذي هو نهاية في قصد الشر بالإفراط في مجاوزة الحدود.

ولما كان ذلك شراً في نفسه أتبعه الإشارة إلى أن الشيء يتغير وصفه بالنسبة إلى من يفعل معه فيكبر بكبر المعصي فقال: ﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: الذي جاء إليهم من الملك الأعلى ، وهو كامل الرسلية ؛ لكونه مرسلاً إلى جميع الخلق ، وفي كل الأزمان ، فلا نبي بعده ، فهو لذلك يستحق غاية الإكرام»[(١)].

﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

يحيونه بقولهم: (السام عليك يا أبا القاسم).

والسام: الموت.

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٩٢.

ويقولون في أنفسهم: لو كان رسولاً لعذبنا الله تعالى بسبب ما نقول[١].

وتحية الله هي السلام، وقد حيا الله بها رسله «وأشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وما جاء في التشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)»[٢].

والملاحظ أن المذكور في الآية من الإثم إنما هو في باب الكلام والحديث.

فالنجوى إنما هي حديث وكلام، والتحية إنما هي كلام، وقولهم في أنفسهم إنما هو كلام، فإنهم يقولون ذلك.

ثم إن النجوى كلام مع الآخرين، ولا تكون إلا من أكثر من واحد.

والتحية في الآية إنما هي لواحد، وهو الرسول ﷺ.

والقول في النفس إنما هي قول الشخص لنفسه.

فتدرج من العموم إلى الخصوص أيضاً.

فما تناجوا به ذكر من العموم إلى الخصوص.

والمخاطبون ذكروا من العموم إلى الخصوص.

حتى إنَّ ذِكْر العذاب متدرج، فقد قال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: يكفيهم ذلك.، ولم يقل كيف.

---

(١) انظر: تفسير الرازي ١٠/ ٤٩١، روح المعاني ٢٨/ ٢٦.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٦.

ثم قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ فخصص ذلك بالصليّ.

وقال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ولم يقل: (يدخلونها) لأن الصليّ إنما هو مقاساة الحر وليس مجرد الدخول، فهو أخص.

﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾.

فهي تكفي لعذابهم.

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾.

يدخلونها ويقاسون حرها.

﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ : ما صاروا إليه وهي عاقبتهم. جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ بالفاء لما فيه من معنى التعقيب. ، أي: فبئس المصير ما صاروا إليه، وهو جهنم»[(١)].

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وقال في سورة النور: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

فقال في آية المجادلة: ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وقال في سورة النور: ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فجاء باللام المؤكدة، وهي واقعة في جواب قسم مقدر، فكأنه قال: (والله لبئس المصير).

---

(١) البرهان ٣١٠.

ولم يأت باللام في آية المجادلة ، فما الفرق؟ .

والجواب : أن السياق في كل موضع يبين ذلك .

فقد قال في سياق آية النور : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

فذكر سبحانه أنه وعد الذين آمنوا بالاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وأن يبدلهم بعد خوفهم أمناً ، وذلك كله يعني هزيمة الكفر وخذلانه ، ونصر المؤمنين عليهم والتمكين لهم في الأرض .

ثم قال : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : لا يستطيعون الهرب منا ، وأنهم يفوتوننا فلا ندركهم ، فنحن ندركهم أينما هربوا. جاء في (تفسير أبي السعود) في هذه الآية : «أي : لا تحسبنهم معجزين الله عن إدراكهم وإهلاكهم في قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا كل مهرب»[١] .

فهم منهزمون في الدنيا ، هاربون مخذولون ، وفي الآخرة مأواهم النار ، والهارب يحتاج إلى مأوى يأوي إليه ، فذكر أن مأواهم النار ، فبئس المصير مصيرهم في الدنيا والآخرة .

ففي الدنيا الهزيمة والذل ، وفي الآخرة النار ، فأكد سوء مصيرهم .

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٧١ .

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف ، أي: وبالله لبئس المصير هي ، أي: النار.

وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم إثر نفي قوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب من الجزالة مالا غاية وراءه ، فلله در شأن التنزيل»[١].

وليس السياق كذلك في آية المجادلة ، وإنما السياق في النجوى كما مر ، فكان كل تعبير هو المناسب في سياقه.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

* * *

خاطب المؤمنين أنهم إذا تناجوا في خلواتهم فلا يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما يفعل المنافقون ، و«بدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس ؛ إذ هي ظلامات العباد ، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك»[٢].

وجاء في (التفسير الكبير): «﴿ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ ﴾ وهو ما يقبح مما

---

(١) تفسير أبي السعود ٥ / ٧١.
(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٣٦.

يخصهم ، ﴿ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ وهو يؤدي إلى ظلم الغير ، ﴿ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ وهو ما يكون خلافاً عليه .

وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان ، وبالتقوى ، وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي»[(١)] .

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه لم يستعمل (المعصية) إلا في معصية الرسول ، واستعمل (العصيان) عاماً ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ [الحجرات : ٧][(٢)] .

فاستعمل في الآية : ﴿ ٱلۡفُسُوقَ ﴾ ولم يستعمل : (الفسق) ذلك أن الفسوق استعمله القرآن لما هو أعم من الفسق .

فإن (الفسق) استعمله القرآن في سياق الأطعمة ، وبخاصة الذبائح .

أما (الفسوق) فاستعمله في الخروج عن طاعة الله عامة[(٣)] .

فاستعمل (الفسوق) وهو عام مع (العصيان) وهو عام .

ونظير ذلك في الخاص والعام: المغفرة والغفران ، والمرضاة والرضوان ، وغيرهما[(٤)] .

﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ .

البر يقابل الإثم والعدوان ، فهو جماع للخير ما كان للنفس وما كان

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٤٩٢ .

(٢) انظر : كتابنا (من أسرار البيان القرآني) ١٨ .

(٣) من أسرار البيان القرآني ٢٠ .

(٤) انظر : (من أسرار البيان القرآني) ص ٧ ومابعدها .

للغير ، كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

﴿ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : «حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور»(١) .

ومن ذلك اتقاء معصية الرسول ، فاتقاء معصية الرسول إنما هو من التقوى. جاء في (تفسير البيضاوي): «وتناجوا بالبر والتقوى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول»(٢) .

لقد طلب ربنا هاهنا التناجي بالبر والتقوى ، والنهي عن التناجي بالإثم والعدوان ، وطلب في موضع آخر التعاون على البر والتقوى ، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

والتناجي قول ، والتعاون عمل.

فجمع الخير كله في الأمر والنهي في القول والعمل.

وقد ذكر في آية المجادلة التناجي.

وذكر في سورة المائدة التعاون.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (وقي).

(٢) تفسير البيضاوي ٧٢١ وانظر: روح المعاني ٢٨/ ٢٧ .

لأن السياق في المجادلة إنما هو في التناجي والنجوى.

وأما السياق في المائدة ففي الأعمال من الأمر بالوفاء بالعقود وما أحله الله لهم من الأنعام وفي ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونحو ذلك. فناسب الأمر بالتعاون على الخير، والنهي عن التعاون على السوء.

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾.

«فيما تأتون وتذرون»(١).

لقد أمر ربنا في الآية الكريمة بالتناجي بالبر والتقوى، ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾، فإن الأمر بالتناجي بالتقوى إنما ذلك بالقول.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ يعني: الأمر بالتقوى في العمل والقول، فجمع في ذلك طلب التقوى في القول والعمل. جاء في (نظم الدرر): «ولما كانت التقوى أم المحاسن أكدها ونبه عليها بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ أي: اقصدوا قصداً يتبعه العمل أن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الأعظم وقاية»(٢).

﴿ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

أي: تحشرون إليه خاصة لا إلى غيره «أي: تجمعون بأيسر أمر

---

(١) تفسير البيضاوي ٧٢١ وانظر: روح المعاني ٢٨/ ٢٧.
(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٩٤.

وأسهله بقهر وكره ، وهو يوم القيامة»[١] «فيجازيكم على ذلك»[٢] .

وقدم الجار والمجرور (إليه) على الفعل (تحشرون) لإفادة الحصر .

قد تقول : لقد قال في هذه الاية ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فذكر الحشر إليه .

وقال في آية المائدة : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فوصفه بأنه شديد العقاب .

فلم ذاك؟

والجواب أن ما ذكره في المائدة من المحظورات أكثر وأشد مما ذكره في المجادلة .

فقد نهى في المجادلة عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

وأما في المائدة فقد نهى عن التعاون على الإثم والعدوان .

والتعاون على الإثم والعدوان أشد من التناجي في ذلك ، فإن التناجي إنما هو قول ، وأما التعاون فهو فعل للإثم والعدوان والتعاون عليه .

وذكر إضافة إلى ذلك النهي عن أن يحلّوا شعائر الله وما ذكره من نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ .

ثم نهاهم عن أن يحملهم بغضهم لقوم أساؤوا إليهم على العدوان

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٩٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٧ .

فـقـال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾.

فلما زاد في ذكر المحظورات والنهي عنها زاد في التحذير فقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ١٠] .

* * *

﴿ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ معرّفة بأل العهدية، وهي إشارة إلى ماذكره من النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

و ﴿ إِنَّمَا ﴾ للقصر، أي: ماهذه النجوى إلا من الشيطان، وليست من غيره وذلك ليحزن الذين آمنوا ويغيظهم. جاء في (الكشاف): « ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بدليل قوله تعالى: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم، فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم»(١).

﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ «أي: ليس الشيطان أو التناجي

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٩ وانظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

بضار المؤمنين (شيئاً) من الأشياء ، أو شيئاً من الضرر (إلا بإذن الله) أي: إلا بإرادته ومشيئته عز وجل»[١] .

وجاء بالباء في الخبر للتوكيد.

وقال: ﴿ بِضَآرِّهِمْ ﴾ باسم الفاعل الدال على الثبوت ، ولم يقل: (ولا يضرهم شيئا) بالفعل للدلالة على نفي الضرر عليهم منه على وجه الدوام إلا بإذنه سبحانه.

والملاحظ في التعبير القرآني أنه ينفي الضرر من الشيطان بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام والثبوت ، كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى في تعليم الشياطين السحر للناس: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ . . . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

والضمير (هم) قيل يعود على السحرة ، وقيل: يعود على الشياطين[٢] .

وسواء عاد الضمير على السحرة أم على الشياطين فإن السحر من عمل الشيطان ، وإنه يفعل ذلك لعداوته لبني آدم.

وهو ينفي الضرر من غيره بالفعل نحو: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، وقوله: ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن

(١) روح المعاني ٢٨/ ٢٧ وانظر: تفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٩ .
(٢) انظر: البحر المحيط ١/ ٣٣٢ ، روح المعاني ١/ ٣٤٤ .

شَيْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣] ، وقوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

وذلك أن الشيطان عدو دائم للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف ٥:] ، وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] .

فهو يريد الضرر بالإنسان على جهة الدوام ولا سيما المؤمنين ، فنفى الضرر منه بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام.

وقال: ﴿ شَيْئًا ﴾ فأطلقه ولم يقيده بشيء ؛ إذ يحتمل أن يكون المعنى أنه ليس بضارهم شيئاً من الأشياء ، ولا بشيء من الضرر.

والمعنيان مرادان ، فهو ليس بضارهم شيئاً من الأشياء ولا شيئاً من الضرر إلا بإرادة الله سبحانه.

﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ وحده لا على غيره.

﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع أمورهم ، فهو حسبهم وكافيهم ، كما أخبر ربنا بقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

* * *

لما ذكر سبحانه أدب التناجي وجههم إلى أدب المجالس ، و«لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة»[١] .

جاء في (روح المعاني) : «ولما نهى سبحانه عن التناجي والسرور علم منه الجلوس مع الملأ ، فذكر جل وعلا آدابه بعده بقوله عز من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ . . . ﴾ إلخ .

أو لما نهى عز وجل عما هو سبب للتباغض والتنافر أمر سبحانه بما هو سبب للتوادّ والتوافق»[٢] .

﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ .

أي : إذا قال لكم قائل : توسعوا في المجالس ، أي : فليفسح بعضكم عن بعض .

﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

لم يقيد سبحانه بم يفسح الله لهم ؛ بل جعله مطلقاً عاماً في كل ما تحسن الفسحة فيه ، فهو «مطلق في كل مايبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك»[٣] .

وجاء في (البحر المحيط) أي : «في رحمته أو في منازلكم في الجنة

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٤٩٣ .
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٧ ، وانظر : البحر المحيط ٨/ ٢٣٦ .
(٣) الكشاف ٣/ ٢١٠ .

أو في قبوركم أو في قلوبكم أو في الدنيا والآخرة أقوال»[١].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفسحة في كل ما ذكر وما لم يذكر مما تحسن الفسحة فيه، فإن ربنا سبحانه أطلق الفسحة ولم يقيدها بشيء، وذلك من عظيم رحمته وكرمه سبحانه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾.

«أي: انهضوا للتوسعة على المقبلين»[٢].

﴿ فَٱنشُزُواْ ﴾ أي: فانهضوا ولا تتثبطوا[٣].

فأمر بالتفسح أولاً ثم بالنهوض إذا قيل لهم ذلك، فبدأ بما هو أيسر على النفس وعلى الجالسين وبحسب مايقتضيه المقام.

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾.

أي: يرفع الله المؤمنين والذين أوتوا العلم درجات، فليس في الامتثال لذلك انتقاص لهم، وإنما فيه رفعة لهم، يرفعهم الله بذلك درجات.

وفي ذلك إلماح إلى أن العلماء ينبغي أن ينهضوا للتوسعة مثل باقي المؤمنين، ولا ينبغي أن يمنعهم علمهم واعتدادهم به من ذلك فيكون العلم مانعاً لهم من الامتثال لما أمر الله به، فيجعلون لأنفسهم منزلة أعلى من باقي المؤمنين.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٣٦، وانظر: روح المعاني ٢٨/ ٢٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٠.

(٣) روح المعاني ٢٨/ ٢٨.

وقال: ﴿ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ ولم يقل: (درجة) وذلك بحسب إيمانهم وعلمهم وامتثالهم.

«وانتصب ﴿ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ على أنه ظرف مكان يتعلق بـ (يرفع) أي: يرفع الله الذين آمنوا رفعاً كائناً في درجات.

ويجوز أن يكون نائباً عن المفعول المطلق لـ (يرفع) لأنها درجات من الرفع، أي: مرافع»[1].

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

لقد قال سبحانه في هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ فلم يؤكد خبرته بعملهم، في حين قال في موضع آخر: ﴿ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [هود: ١١١] فأكد ذلك بـ (إنّ) وذلك قوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ وذلك أنه ذكر في آية هود الأعمال وتوفية أصحاب العمل كلهم أعمالهم كلها، فناسب ذلك توكيد خبرته بأعمالهم.

هذا إضافة إلى أنه أكد أول الآية بـ (إن) فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلّٗا ﴾، وأكد باللام في ﴿ لَّمَّا ﴾، وبنون التوكيد الثقيلة في ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ ﴾ فناسب توكيد الخبرة بالعمل.

وليس السياق كذلك في آية المجادلة، فالآية في الأمر بالتفسح في المجالس، وهذا عمل من الأعمال.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٤١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

❋ ❋ ❋

قيل: إن قوماً من المؤمنين ومن غيرهم أيضاً من المنافقين واليهود كثرت مناجاتهم للرسول في غير حاجة ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يرد أحداً ، فنزلت مشددة عليهم أمر المناجاة[١] .

ثم نسخت .

جاء في (روح المعاني): «أي: إذا أردتم المناجاة معه عليه الصلاة والسلام لأمر ما من الأمور ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ فتصدقوا قبلها... وفي هذا الأمر تعظيم الرسول ﷺ ونفع للفقراء وتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، ودفع للتكاثر صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حاجة مهمة... ونسخ بقوله تعالى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ﴾ إلخ»[٢] .

﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾ .

«أي: تقديم الصدقات خير لكم لما فيه من الثواب ، و(أطهر) أي: أزكى لأنفسكم»[٣] .

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٧ ، فتح القدير ٥/ ١٨٥ .
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣٠ .
(٣) روح المعاني ٢٨/ ٣١ .

لقد أفرد كاف الخطاب في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ولم يقل: (ذلكم) كما في آيات أخرى، من نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وغيرها من الآيات.

وقد ذكرنا في كتابنا (معاني النحو) الغرض من الإفراد والجمع لكاف الخطاب في (ذلك) و(ذلكم) في القرآن الكريم.

فقد يستعمل القرآن الجمع للتوكيد، وقد يستعمله بحسب المخاطبين من حيث الكثرة والقلة، فيستعمل الجمع للدلالة على كثرة المخاطبين، والإفراد للدلالة على قلتهم بالنسبة إلى غيرهم، أو غير ذلك[١].

جاء في (معاني النحو): «وقد استعمل القرآن الكريم الخطاب بالجمع وبالإفراد للتمييز بين مجموعتين.

فقد تكون مجموعة أكبر من مجموعة فيستعمل لخطاب الجمع الكثير بصورة الجمع، وللقليل بصورة الإفراد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ فإن الآية الأولى لخطاب المؤمنين وتكليفهم إلى قيام الساعة.

وأما الآية الأخرى فلخطاب الصحابة وحدهم ولا يشمل غيرهم من المسلمين، ثم إنه حكم ما لبث أن نسخ.

فجاء لما هو عام شامل بصيغة الجمع، ولما هو خاص بالإفراد»[٢].

---

(١) انظر: كتابنا (معاني النحو) ١/ ٩٤ وما بعدها (كاف الخطاب).

(٢) معاني النحو ١/ ٩٨ ـ ٩٩.

وآية البقرة المذكورة إنما هي في حكم من أحكام الطلاق ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ وهو حكم عام لجميع الأمة إلى قيام الساعة كما مر .

فجاء لمن هم أقل ولما هو موقوت غير دائم بـ (ذلك) .

ولمن هم أكثر ولما هو آكد وأدوم بـ (ذلكم) .

* * *

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

* * *

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ .

«الإشفاق ـ هنا ـ: الفزع من العجز عن الشيء المتصدق به ، أو من ذهاب المال في الصدقة»[(١)] .

والمعنى : «أأخفتم الفقر لأجل تقديم الصدقات؟»[(٢)] .

وجمع الصدقات لكثرة التناجي ، فإن خوف الفقر قد يكون من كثرة

---

(١) تفسير الثعالبي ٤/ ٦٩ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣١ .

التناجي أو جمعها ؛ لأن المخاطبين جمع[١] .

جاء في (روح المعاني): «جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة ؛ لأنه ليس مظنة الفقر ، بل من استمرار الأمر وتقديم صدقات. وهذا أولى مما قيل إن الجمع لجمع المخاطبين ؛ إذ يعلم منه وجه إفراد الصدقة فيما تقدم على قراءة الجمهور»[٢] .

ولعل المراد كلاهما .

أما ما رجحه صاحب (روح المعاني) من أنه جمع الصدقات ؛ لأن الخوف من استمرار الصدقات لا لكثرة المخاطبين مستدلاً بالآية قبلها ، فقد أفرد الصدقة مع أن المخاطبين جمع ، فقد يقال رداً على ذلك أنه لو قال: (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقات) لربما أفهم أن المطلوب تقديم أكثر من صدقة قبل النجوى ، فدفع ذلك الظن بإفراد الصدقة .

﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ «ما أمرتم به وشق عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم المناجاة من غير تقديم صدقة»[٣] .

فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى .

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يعلم ظاهرها وباطنها .

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٧٣٢ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣١.

(٣) روح المعاني ٢٨/ ٣١.

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلم يؤكد الجملة في حين أكد نحو هذه الجملة في أكثر من موطن في القرآن، فقد قال ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في الآية الثامنة من سورة المائدة، وفي الآية الثالثة والخمسين من سورة النور، وفي الآية الثامنة عشرة من سورة الحشر.

فنقول: إن التوكيد وعدمه ـ كما هو معلوم ـ إنما يكون بحسب ما يقتضيه المقام، فإذا اقتضى المقام التوكيد أكد، وإلا فلا.

وليس في آية المجادلة ما يقتضي توكيد الخبرة، في حين أن الآيات الأخرى تقتضي التوكيد.

أما آية المائدة فهي قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فقد طلب ربنا في هذه الآية من عباده المؤمنين أن يكونوا كثيري القيام لله بحقوقه.

و﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ صيغة مبالغة.

فطلب منهم الاتصاف بذلك على جهة الثبوت والدوام وكثرة القيام لله. والقيام لله يتعلق بحق الله في الأنفس وفي حقوق العباد.

وأن يكونوا شهداء بالعدل ولو على أنفسهم هم، أو ضد مصالحهم، فإن ذلك من القيام لله.

وأن لا يحملهم شدة بغضهم لقوم وكرههم لهم ألا يعدلوا بالحكم

أو بالشهادة أو بارتكاب ما لا يحل.

ثم أمرهم علاوة على ذلك فقال: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾.

وكل ذلك مما يثقل على النفس.

ثم حذرهم نفسه قائلاً: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾.

وذلك يدل على عظم وأهمية حقوق العباد ومصالحهم.

فاقتضى ذلك توكيد خبرته سبحانه بأعمالنا فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

وأما آية النور فهي قوله سبحانه في المنافقين: ﴿ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

والكلام على المنافقين كما ذكرت.

وقد أكد قولهم بالقسم والمؤكدات الأخرى.

فقال: ﴿ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾.

ثم قال: ﴿ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ أي: أغلظ الأيمان، وذلك يدل على كثرة أيمانهم المغلظة، فقد جاء بالجمع فقال: ﴿ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾.

وقال: ﴿ لَئِنۡ ﴾ باللام الواقعة في جواب القسم.

و ﴿ لَيَخۡرُجُنَّۖ ﴾ بنون التوكيد الثقيلة ولام الجواب.

فناسب أن يقول الله لهم سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ مؤكداً خبرته بما يعملون كما أكدوا قولهم بالأقسام المغلظة.

وأما آية الحشر فهي قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

فقد حذر رب العزة عباده مرتين فقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وقال: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهي تشمل عموم الأعمال.

ثم قال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

فناسب تكرار التحذير أن يؤكد ربنا سبحانه خبرته بما نعمل ، وليس شيء من ذلك في آية المجادلة.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

* * *

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ .

قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجيب من القوم المذكورين ، وهم المنافقون ، وكانوا يتولون اليهود ، وهم الذين غضب الله عليهم كما أخبر ربنا عنهم في عدة آيات ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ [المائدة: ٦٠] وقوله: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١] وقوله: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠] .

فكانوا يوالونهم ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين[١] .

﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ .

أي : إن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المسلمون .

﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أي : ولا من اليهود ، وإنما هم كالشاة العائرة بين الغنمين كما ذكر الحديث الشريف ، فهم مذبذبون بين ذلك ، كما قال ربنا سبحانه فيهم : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء : ١٤٣][٢] .

لقد قال : ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ فنفى بـ (ما) ولم يقل : (ليسوا منكم) لأن (ما) أقوى من (ليس) فهي قد دخلت على الجملة الاسمية ونفتها. وأما القول : (ليسوا منكم) فهي جملة فعلية ، والاسمية أقوى .

ثم إن هذا مناسب لما بعده ، وهو قوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ ، فناسب حلفهم على الكذب أن ينفي بـ (ما) التي هي رد لقولهم وتوكيد للنفي .

فقد أكد النفي بـ (ما) كما أكدوا قولهم بالحلف .

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي : يحلفون على الكذب فيما أسند إليهم من الأفعال التي فعلوها ، فيحلفون أنهم لم يفعلوها ، ويحلفون على ادّعاء الإسلام وهم كاذبون .

جاء في (الكشاف) : «أي : يقولون والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على

---

(١) انظر : الكشاف ٣/ ٢١١ ، روح المعاني ٢٨/ ٣٢ .

(٢) انظر : الكشاف٣/ ٢١١ ، البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ .

الكذب الذي هو ادعاء الإسلام (وهم يعلمون) أن المحلوف عليه كذب بحت»[١].

إنه لم يقل: (ما هم منكم ولا منهم وإنما هم يكذبون) بل قال: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهم أقسموا على ذلك، وهذه تسمى (اليمين الغموس) وهي التي تغمس صاحبها في نار جهنم.

واليمين الغموس أن تحلف على أمر وأنت تعلم خلافه.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؟

قلت: الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه، سواء علم المخبر أو لم يعلم.

فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه، وهم عالمون بذلك، متعمدون له؛ كمن يحلف بالغموس»[٢].

وقال: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرار الحلف الكاذب[٣].

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: أعد الله لهم العذاب الشديد بسبب استمرارهم، واعتيادهم العمل السيّء.

فقوله: ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ يفيد الماضي المستمر، أي:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١١ وانظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٣) انظر: روح المعاني ٢٨/ ٣٢.

كانوا مستمرين على الأعمال السيئة ، فناسب ذلك أن يكون عذابهم شديداً. جاء في (الكشاف):

« ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني: أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل ، مصرين عليه ، أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة»[1] .

وجاء في (روح المعاني): « ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً.

﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ما اعتادوا عليه وتمرنوا عليه»[2] .

* * *

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ .

* * *

أي: اتخذوا أيمانهم وقاية وسترة يتسترون بها من المؤمنين ، ويتقون المؤاخذة عن أفعالهم السيئة وكيدهم للمسلمين.

﴿ فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أعرضوا هم ، وصدوا غيرهم من الناس عن الإسلام «وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ، ويضعفون أمر المسلمين عندهم»[3] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢١١ ، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٨.

وجاء في (تفسير الرازي): «أي: اتخذوا إظهار أيمانهم جنة عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين، أو جنة عن أن يقتلهم المسلمون، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الإسلام»(١).

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

وهذا وعيد آخر بعذاب آخر لصدهم الناس عن الإسلام، وكل عمل من أعمال الكفر له عذاب، وبعضها أشد من بعض.

والعذاب المهين هو العذاب المخزي لهم بإظهاره وخزيه، فهم تستروا بالأيمان الكاذبة، ففضحهم الله وأخزاهم بعذابه.

جاء في (الكشاف): «وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصدهم كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ [النحل: ٨٨](٢)».

وجاء في (روح المعاني): «﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم، وقيل: الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة، ويشعر به وصفه بالإهانة المقتضية للظهور فلا تكرار»(٣).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وقد وصف العذاب أول مرة بشديد،

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٤٩٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ٣٣.

وهو الذي يجازون به على توليهم قوماً غضب الله عليهم، وحلفهم على الكذب.

ووصف عذابهم ثانياً بـ (مهين) لأنه جزاء على صدهم الناس عن سبيل الله.

وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

فكان العذاب مناسباً للمقصدين في كفرهم، وهو عذاب واحد فيه الوصفان، وكرر ذكره إبلاغاً في الإنذار والوعيد، فإنه مقام تكرير مع تحسينه باختلاف الوصفين»[١].

والذي يظهر لي أن هذا عذاب آخر لعمل آخر، والله أعلم.

* * *

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

* * *

هذه الآية مناسبة لقوله تعالى قبلها: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ «فكما لم تقهم أيمانهم العذاب لم تغن عنهم أموالهم ولا أنصارهم شيئاً يوم القيامة»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨/ ٥٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٥٠.

ومعنى ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ لن تنفعهم أو تدفع عنهم وتمنعهم من العذاب[1].

﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم ﴾.

ذكر الأموال والأولاد ؛ لأنها مظنة المنع وجلب المصالح والنصرة، فذكر المال والقوة، وبهما تتحقق المنافع ودفع المضار.

فقال لهم: إنه لن تنفعهم أموالهم «التي أعدوها لدفع المضار وجلب المصالح.

(ولا أولادهم) الذين يتناصرون بهم في الأمور المهمة، ويعولون عليهم في المهمات المدلهمة، وتأخيرهم عن الأموال مع توسيط حرف النفي ـ كما قال شيخ الإسلام ـ إما لعراقتهم في كشف الكروب، أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب»[2].

وقدم المال لأنه أبلغ في المنع والدفع وجلب المصالح من الأولاد.

جاء في (البحر المحيط): «ولما كان المال في باب المدافعة والتقرب، والفتنة أبلغ من الأولاد قدم في هذه الآية، وفي قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ وفي قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ وفي قوله: ﴿ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ بخلاف قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ

---

(١) انظر: البحر المحيط ٢/ ٣٨٧، روح المعاني ٣/ ٩٣.
(٢) روح المعاني ٣/ ٩٣.

﴿ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ إلى آخرها ، فإنه ذكر هنا حب الشهوات ، فقدم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال»[١].

وأعاد النافي فقال: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ للتوكيد ، وليفيد أنه لاتنفع الأموال وحدها ولا الأولاد وحدهم ولا مجموعهم.

فإنه قد يذكر عدم الإغناء للمال ولا يذكر معه الأولاد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤] وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٠] وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨] وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢].

وقد يذكر الأولاد ولا يذكر الأموال كقوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٦].

فذكر الأموال والأولاد جميعاً في الآية ، وذكر أنها لاتغني من الله شيئاً في كل الأحوال. جاء في (نظم الدرر): «وأكد بإعادة النافي ليفيد النفي عن كل حالة وعن المجموع ، فيكون أصرح في المرام»[٢].

وقوله: (من الله) أي: من عذابه وبأسه ، أو من جهته ، فـ (من) لابتداء الغاية[٣].

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧.

(٢) نظم الدرر ٢/ ٢٨.

(٣) انظر: البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ـ٣٨٨ ، نظم الدرر ٢/ ٢٨.

وذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى بدل ، أي : بدل رحمته وطاعته ، وبدل الحق[١] .

والتعبير يحتمل ، وكأن معنى الابتداء أظهر ، والله أعلم .

﴿ شَيْـًٔا ﴾ .

يحتمل أن يكون المعنى شيئاً من الإغناء ، فيكون النصب على المصدرية ، وأن يكون المعنى : شيئاً من الأشياء ، فيكون مفعولاً به[٢] .

والمعنيان مرادان ، فهي لا تغني من الله شيئاً من الإغناء ، ولا شيئاً من الأشياء ، والله أعلم .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾ أي : ملازموها ملازمة دائمة ؛ ولذا أكد ذلك بقوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٣] .

وجاء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت ، و(هم) يحتمل أن يكون ضمير فصل للاختصاص ، ويحتمل أن يكون مبتدأ .

قد تقول : لقد قال في آية المجادلة هذه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وقال في آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

---

(١) انظر : الكشاف ١/ ٣١١ .
(٢) انظر : البحر المحيط ٢/ ٣٨٨ ، روح المعاني ٣/ ٩٣ .
(٣) انظر : البحر المحيط ١/ ١٧١ .

فقال في آية المجادلة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾ .

وقال في آية آل عمران: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾ بذكر الواو.

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل تعبير يوضح ذلك.

فسياق الكلام في آل عمران إنما هو في أهل الكتاب، ومما قاله في السياق فيهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

فذكر أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم شيئاً في الدنيا، ذلك أنهم سيغلبون فيها، وفي الآخرة هم أصحاب النار.

فدل ذلك على أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة.

ونحو ذلك قوله تعالى في آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

وهو إشارة إلى أنهم سيغلبون في الدنيا، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم فيها، وفي الآخرة هم وقود النار.

ويدل على ذلك السياق، فقد قال بعدها: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ .

فقد ذكر أنهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، فقد عاقبهم الله

سبحانه في الدنيا وسيعاقبهم في الآخرة.

وكما قال في الآية بعدها: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ . فهم سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة ، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم في الدنيا ولا في الآخرة.

فالواو عطف أو استئناف.

جاء في (نظم الدرر) أنهم «ليست مغنية عنهم تلك النعم شيئاً ، وأنهم مغلوبون لا محالة في الدنيا ، ومحشورون في الآخرة إلى جهنم»[1] .

أما آية المجادلة فهي في المنافقين ، فذكر عدم الإغناء على العموم ، ولم يعطف فإنهم لم يحاربوا الرسول في الدنيا حرب قتال ، بل كانوا يظهرون له أنهم معه.

فجاء بالتعبير عاماً يعم الدنيا والآخرة في عدم الإغناء.

ولم يعطف أو يستأنف ؛ فإنهم إن نجوا في الدنيا فلن ينجوا في الآخرة ، فناسب كل تعبير سياقه.

* * *

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

* * *

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٢٨ .

«هذا متصل بقوله ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ »[١].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ فلا يترك أحداً منهم.

وقوله: ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾ أي: يحلفون لله تعالى في الآخرة على أنهم مسلمون وأنهم لم يكونوا مشركين؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٣].

﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيـا على أنهم منكم، كما أخبر ربنا سبحانه عنهم بقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾[٢] [التوبة: ٥٦].

و«ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم، واستجرار فوائد دنيوية... ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة... والمراد وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل، كما قال: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ »[٣].

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي: «يحسبون في الآخرة (أنهم) بتلك

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨/ ٥٢.
(٢) انظر: تفسير الرازي ١٠/ ٤٩٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٢١١.

الأيمان الفاجرة على شيء من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه في الدنيا»[١].

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ «البالغون في الكذب إلى غاية لا مطمح وراءها، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب»[٢] « وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه عز وجل كما تروجه عند المؤمنين»[٣].

وقد أكد كذبهم بحرف التنبيه (ألا) وحرف التوكيد (إن) وضمير الفصل الذي يفيد الاختصاص والقصر، وبالتعريف، أي: هم الكاملون في الكذب، البالغون فيه أبعد الحدود.

* * *

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

* * *

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ﴾.

أي: استولى عليهم وغلب على نفوسهم وأحاط بهم من كل جهة حتى أطاعوه في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه[٤].

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٣٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٢ وانظر: تفسير البيضاوي ٧٢٣، روح المعاني ٢٨/ ٣٣.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ٣٣.
(٤) انظر: الكشاف ٣/ ٢١٢، البحر المحيط ٨/ ٢٣٨.

﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ .

أي: أنساهم «أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم»[١] .

وقد عطف بالفاء للدلالة على السببية والترتيب والتعقيب بحيث لم يجعل لهم مهلة في ذلك ، فهو لم يقل: (وأنساهم) أو: (ثم أنساهم) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ .

أي: جنده وأتباعه[٢] .

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

«أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه ، حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم»[٣] .

وجاء في (فتح القدير): «﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي: الكاملون في الخسران ، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ؛ لأنهم باعوا الجنة بالنار ، والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه ، وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة»[٤] .

وقد جاء بـ (ألا) التي للتنبيه ، وأكد بـ (إن) وبضمير الفصل الذي يفيد القصر والتوكيد ، وعرف (الخاسرين) ولم يقل: (ألا إن حزب الشيطان

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢ ، البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ .
(٢) الكشاف ٣/ ٢١٢ ، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣ .
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣ .
(٤) فتح القدير ٥/ ١٨٨ .

خاسرون) للدلالة على عظم الخسارة ، فكأنه قد حصر الخسران فيهم ، فلا أحد أخسر منهم.

هذا إضافة إلى أنه أظهر حزب الشيطان وكرره ولم يأت بالضمير الذي يعود عليهم ، فإنه قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ولم يقل: (أولئك حزب الشيطان ألا إنهم) لغرض التوكيد ، ولإفادة أن حزب الشيطان على العموم في كل مكان وزمان هم الخاسرون ، وليس هؤلاء المذكورون فقط ، فإنه لو قال: (ألا إنهم هم الخاسرون) لربما أفهم أن هذا الخسران مخصوص بالمذكورين ؛ لأن الضمير يعود عليهم.

فكان التوكيد بألا وإن وإظهار مايمكن إضماره وضمير الفصل وتعريف الخاسرين بأل. جاء في (تفسير أبي السعود): «وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق وإظهار المتضايفين معا في موقع الإضمار بأحد الوجهين وتوسيط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى»[1].

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

ذكر الذين يحادون الله ورسوله في آية سابقة ، وقد ذكر أنهم كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، أي: أُذلّوا وأُخزوا وأن لهم عذاباً مهيناً (الآية ٥).

وقد ذكر في هذه الآية أنهم في الأذلين ، أي: «في جملة من هو أذل

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣.

خلق الله ، لاترى أحداً أذل منهم»[١] .

وقال عنهم: إنهم في الأذلين ، ولم يقل: (أولئك هم الأذلون) ذلك أن هناك من هم من الأذلين غيرهم ، وهم الذين كبتوا من الأمم السابقة ممن حاد الله ورسله ، وممن سيأتي فيما بعد.

فناسب أن يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ أي: في جملتهم «وذلك في الدنيا والآخرة»[٢] .

* * *

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ ﴾ .

* * *

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ .

قيل: أي: في اللوح المحفوظ ، أو (كتب) بمعنى قضى[٣] . والغلبة قد تكون بالحجة والبرهان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، أو بالسيف أو بكليهما. وقد تكون الغلبة للرسل بإهلاك المعاندين ، كما هو شأن كثير من الأقوام التي أهلكها ربنا انتصاراً لرسله.

جاء في (تفسير الرازي): «﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ : غلبة جميع الرسل بالحجة مفاضلة ؛ إلا أن منهم من ضم إلى الغلبة بالحجة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢ ، البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ .
(٢) نظم الدرر ٧/ ٥٠٦ .
(٣) انظر: الكشاف ٣/ ٢١٢ ، البحر المحيط ٨/ ٢٣٩ .

الغلبة بالسيف ، ومنهم من لم يكن كذلك»[١] .

وجاء في (روح المعاني): « ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي: أثبت في اللوح المحفوظ ، أو قضى وحكم.

وعن قتادة قال: وأياً ما كان فهو جارٍ مجرى القسم ؛ فلذا قال سبحانه: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ أي: بالحجة والسيف وما يجري مجراه ، أو بأحدهما.

ويكفي في الغلبة بما عدا الحجة تحقيقها للرسل عليهم السلام في أزمنتهم غالباً ، فقد أهلك سبحانه الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب ، كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم. والحرب بين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين ، وإن كان سجالاً ، إلا أن العاقبة كانت له عليه الصلاة والسلام ، وكذا لأتباعهم بعدهم»[٢] .

وقد أكد ربنا غلبته وغلبة رسله باللام الواقعة في جواب القسم ونون التوكيد الثقيلة ، ذلك أن العرب قد تجري (كتب) مجرى القسم ، فيجاب بما يجاب به القسم. جاء في (معاني القرآن) للفراء: «الكتاب يجري مجرى القول ، تدخل فيه أن وتستقبل بجواب اليمين»[٣] .

وجاء في (تفسير أبي السعود): « ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي: قضى وأثبت في اللوح ، وحيث جرى ذلك مجرى القسم أجيب بما يجاب به ، فقيل:

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٤٩٨ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣٤ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٢ .

﴿ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ أي: بالحجة والسيف وما يجري مجراه، أو بأحدهما. ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]»[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

أي: إن الله قوي على نصرة أنبيائه وحزبه.

﴿ عَزِيزٌ ﴾ يمنع حزبه من أن يذل، غالب لايدفعه أحد عن مراده[٢].

وقد أكد قوته وعزته بـ (إن)، وذلك أنه لما ذكر غلبته وغلبة رسله ناسب أن يؤكد ربنا قوته وعزته.

ألا ترى أنه سبحانه قال في موضع آخر: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩].

فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ فلم يؤكد، وذلك أن السياق في الشورى في لطفه بعباده ورزقه لهم، فلا يستدعي ذلك توكيدهما[٣].

وقد يؤكد بأكثر من مؤكد إذا اقتضى ذلك، وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] لأن السياق يقتضي ذاك[٤].

* * *

﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣، وانظر: روح المعاني ٢٨/ ٣٤.

(٢) انظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٩، تفسير الرازي ١٠/ ٤٩٨.

(٣) انظر: كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٣/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٤) انظر: كتابنا (التعبير القرآني) ١٧٥.

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

* * *

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، فإنه بعد أن ذكر الذين يحادّون الله ورسوله ويتولون قوماً غضب الله عليهم، ذكر المؤمنين وصفاتهم وأنهم لا يوادّون من حادّ الله ورسوله أياً كانت قرابته لهم وصلته بهم. فلا يصح بحال من الأحوال أن يكون أحد يؤمن بالله واليوم الآخر موالياً لمن حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب الناس إليه.

وفي هذا ما فيه من الزجر والمبالغة في النهي.

جاء في (الكشاف): «من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين.

والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته»[١].

وجاء في (النكت والعيون): «وفيه وجهان:

أحدهما: أنه خارج مخرج النهي للذين آمنوا أن يوادّوا من حاد الله ورسوله.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢.

الثاني: أنه خارج مخرج الصفة لهم والمدح بأنهم لا يوادّون من حادّ الله ورسوله، وكان هذا مدحاً»[١].

«وقدم الآباء؛ لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف.

وثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم، وثلّث بالإخوان؛ لأنهم الناصرون لهم... وختم بالعشيرة؛ لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالباً»[٢].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾.

أي: أثبته الله تعالى فيها[٣].

﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ ﴾.

أي: قواهم برحمته وهداه، ونور منه. فالضمير في قوله (منه) يعود على الله.

قيل: ويجوز أن يعود الضمير على الإيمان، أي: قواهم بنور الإيمان، فإن الإيمان سبب لحياة القلوب. جاء في (الكشاف): «﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ ﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٥٠.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣٥، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٢١٢.

ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب»[١] .

﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بطاعتهم له .

﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بما أوتوه عاجلاً وآجلاً في الدنيا والآخرة[٢] .

جاء في (النكت والعيون) : «رضي الله عنهم في الدنيا بطاعتهم .

﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رضوا عنه في الآخرة بالثواب .

الثاني : رضوا عنه في الدنيا بما قضاه عليهم فلم يكرهوه »[٣] .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي : «أنه تعالى عدد نعمه على المؤمنين ، فبدأ بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ . . .

والنعمة الثانية قوله : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ ﴾ . . .

النعمة الثالثة : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ وهو إشارة إلى نعمة الجنة .

النعمة الرابعة : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ وهي نعمة الرضوان ، وهي أعظم النعم وأجلّ المراتب .

ثم لما عدد هذه النعم ذكر الأمر الرابع من الأمور التي توجب ترك الموادة مع أعداء الله فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢ وانظر : تفسير البيضاوي ٧٢٣ ، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣ ، روح المعاني ٢٨/ ٣٦ .
(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٣ .

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾»[1].

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المختصون بالفلاح، فليس لغيرهم فلاح.

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وختم آية المجادلة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فإن سياق آيات المائدة في استعانة الذين في قلوبهم مرض باليهود والنصارى واتخاذهم أولياء؛ ليحتموا بهم وينصروهم، كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٖ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢].

فقال لهم ربنا: إنه من يتول الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون، وليس الذين يتولون الكافرين.

فآية المائدة في النصرة والغلبة، فختمها بقوله: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

---

(١) التفسير الكبير ١٠/٤٩٩ - ٥٠٠.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾»(١).

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المختصون بالفلاح، فليس لغيرهم فلاح.

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وختم آية المجادلة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فإن سياق آيات المائدة في استعانة الذين في قلوبهم مرض باليهود والنصارى واتخاذهم أولياء؛ ليحتموا بهم وينصروهم، كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

فقال لهم ربنا: إنه من يتول الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون، وليس الذين يتولون الكافرين.

فآية المائدة في النصرة والغلبة، فختمها بقوله: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

مناسبة هذه السورة لما قبلها ، وهي سورة المنافقون ، ظاهرة في أكثر من موضع :

١ ـ فقد «ذكر سبحانه المؤمنين والكافرين في خاتمة سورة (المنافقون) فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ ﴾ .

وذكر المؤمنين والكافرين في أول سورة التغابن فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ ﴾ [الآية : ٢] .

٢ ـ قال في خاتمة سورة المنافقون : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ ﴾ .

وقال في أول سورة التغابن : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾ فذكر علمه بالعمل في الموضعين ، ثم ذكر علمه بكل شيء في السموات والأرض بعد ذلك فقال :

﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن : ٤] .

فاستوفى علمه كل شيء.

٣ ـ قال في خواتيم سوة المنافقون:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وقال في أوائل التغابن:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

فللكافرين الذلة، وللمؤمنين العزة، وقد أتاهم نبأ الذين كفروا من قبل ممن ذاقوا وبال أمرهم»[١].

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه السورة لما قبلها أن ماقبلها يشتمل على حال المنافقين، وفي آخرها خطاب المؤمنين، فأتبعه بما يناسب من قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ ﴾ هذا تقسيم في الإيمان والكفر»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين، وخاطب بعد المؤمنين.

وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر.

وأيضاً في آخر تلك: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾ [الآية: ٩].

وقال في هذه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ ﴾ [الآية: ١٥].

---

(١) التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم ١٥٨-١٥٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٧٦.

وهذه الجملة على ما قيل كالتعليل لتلك»[١].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

* * *

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ذكر في هذه الآية:

أنه يسبح لله ما في السموات وما في الأرض، أي: ينزهونه عن كل نقص.

وأنه له الملك.

وله الحمد.

وهو على كل شيء قدير.

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١١٩.

والذي ينزَّه إنما هو ذو الملك والقدرة.

فكلما كان الملك ملكه أوسع، والمقتدر قدرته أعظم؛ كان التنزيه أدلّ على مدحه، أما إذا لم يكن مالكاً لشيء، وليس ملكاً على شيء، ولا قادراً على شيء؛ فلا معنى لتنزيهه.

وكذلك بالنسبة إلى الحمد؛ فإنه إذا كان الملك الأوحد والقدير الأعظم محموداً في ملكه وقدرته، وفي عموم ما يحمد عليه؛ دل ذلك على كماله في صفاته؛ إذ قلما يسلم ملك من ملوك الأرض والقدير من أهل الأرض من مأخذ فلا يحمد من كل وجه، ولاينزه من كل وجه، ولا ينزهه عموم رعيته، بل هناك من له مأخذ عليه.

أما الله سبحانه فإنه ينزهه أهل السموات والأرض، وهو المحمود على كل حال.

إن هذه الآية تناسب قوله في خواتيم السورة التي قبلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩].

فإنه طلب من الذين آمنوا ألا يلهيهم المال والولد عن ذكر الله، وذلك يناسب تسبيح ما في السموات والأرض، وكأن قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تعليل لطلب الذكر من المؤمنين، وألا تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكر الله، فإن ما في السموات والأرض يسبحون الله ويذكرونه، فاذكروه أنتم أيها المؤمنون.

فيتوافق جميع مافي الكون في تسبيح الله سبحانه وذكره.

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة أن تكرار (ما) في آيات التسبيح يدل

على أنه يعقب الآية بذكر أهل الأرض ، وأنه إذا لم يكرر (ما) فإنه لا يذكر شيئاً يتعلق بأهل الأرض(١) .

وقد كرر (ما) في هذه الآية فأعقبها بالكلام على أهل الأرض فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ .

ثم إن السورة ابتدأت بالفعل المضارع ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ ، وقد ذكرنا أيضاً في أكثر من مناسبة أن كل سورة تبدأ التسبيح بالفعل الماضي ، أي: (سبح لله) يجري فيها ذكر للقتال بخلاف ما يبدأ بالفعل المضارع ، أي: (يسبح لله)(٢) .

وهذه السورة بدأت بالفعل المضارع ، فلم يجر فيها ذكر للقتال ، وهو السمت العام في هذه السور .

وقدم الجار والمجرور في قوله: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ للدلالة على الاختصاص والقصر ، فإنه له الملك حصراً على الحقيقة ، أما غيره فملكهم من تمليكه سبحانه لهم ، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦] .

وكذلك قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ فإنه له الحمد حصراً ، فهو مولي النعم كلها ، وكل من عداه مفتقر إليه وإلى نعمه ، فله الحمد حصراً لا لغيره على الحقيقة ، أما حمد غيره فلأنه سبحانه أجرى النعمة على يده ،

---

(١) على طريق التفسير البياني ١/ ٢٠٢ .
(٢) انظر: (على طريق التفسير البياني) ١/ ٢٠٢ .

فكل حمد لغيره إنما هو بسبب نعمته سبحانه.

جاء في (روح المعاني): «﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ لا لغيره تعالى؛ إذ هو جل شأنه المبدئ لكل شيء، وهو القائم به والمهيمن عليه، وهو عز وجل المولي لأصول النعم وفروعها، وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه وتسليط.

وأما حمد غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده، فكلا الأمرين له تعالى في الحقيقة، ولغيره بحسب الصورة.

وتقديم ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ لأنه كالدليل لما بعده»[(١)].

وجاء في (الكشاف): «قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل؛ لأن الملك على الحقيقة له؛ لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، وكذلك الحمد؛ لأن أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط منه، واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده»[(٢)].

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي: «وقوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ معناه: إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد.

ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه، والتصرف مفتقر إلى

---

(١) روح المعاني ٢٨/١١٩.
(٢) الكشاف ٣/٢٣٦.

القدرة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ »[١] .

ومن لطيف التناسب في هذا المفتتح وما بعده من الآيات :

١ ـ أنه قال بعدها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

والذي يفعل هذا إنما هو على كل شيء قدير ، وهو الذي ذكره في الآية الأولى .

٢ ـ ثم قال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

فقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ يناسب قوله: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ .

وقوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ يناسب قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ فالذي يفعل ذلك بالحق إنما له الحمد .

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يناسب قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ويناسب قوله: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ .

ويناسب ما ذكره بعد ذلك من مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة في قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ . . . ﴾ [الآيتان: ٩ ـ ١٠] .

وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يناسب قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ فإن ذلك يفيد تنزيهه عن الباطل .

---

(١) التفسير الكبير ـ المجلد العاشر ٥٥١ .

٣ ـ وقال بعد ذلك: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

فالذي له الملك ينبغي أن يعلم ما في ملكه .

وتمام العلم أن يعلم ما يسر عباده وما يعلنون ، ويعلم ما في الصدور ، والذي يعلم ذلك له الحمد وهو على كل شيء قدير .

وينبغي أن يسبحه ما في السموات وما في الأرض .

كما ناسب مفتتح السورة خاتمتها «فقد قال في أول السورة: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وقال في آخرها:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

فكلتا الآيتين في الله وصفاته .

فقوله في الآية الأولى: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يناسب قوله في آخر السورة: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

فالذي له الملك هو العزيز ، وهو الحكيم من الحكم .

والذي له الحمد هو الحكيم من الحكمة ، وهو الذي ينزهه أهل السموات والأرض ويسبحونه .

والذي له الملك وله الحمد ينبغي أن يكون عالماً بما في ملكه لا يندّ عنه شيء ، فقال سبحانه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ .

وقال في أوائل السورة: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾.

والذي يعلم ذلك هو عالم الغيب والشهادة المذكور في آخر آية من السورة.

ثم ذكر الذين كفروا بعد ذلك بقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ وما بعدها.

وذكر بعدها الذين آمنوا إلى خواتيمها فقال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

وذلك إلى نهاية السورة»[١].

* * *

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾.

* * *

«بدأ بالكفار لأنهم أكثر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد يكون مع ذلك إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم يذكر

---

(١) انظر: (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) ـ سورة التغابن.

المؤمنين بعدهم ، فقد قال بعد هذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

وقال : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

فقدم الكلام على الكافرين ، ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً . . . فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم»(١) .

جاء في (الكشاف) : «تقديم الكفر ؛ لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم»(٢) .

﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ .

أي : فمنكم مَنْ اختار الكفر فصار كافراً ، ومنكم مَنْ اختار الإيمان فصار مؤمناً . جاء في (الكشاف) : «يعني : فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له ، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : عالم

---

(١) التعبير القرآني ٥٨ ، وانظر : الحاشية ٥٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ، وانظر : روح المعاني ٢٨/ ١١٩ .

بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم»[١].

وذهب بعضهم إلى أن الكفر والإيمان في ضمن الخلق[٢].

والذي يترجح عندي معنى الاختيار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] والله أعلم.

جاء في (فتح القدير): «قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان، والكافر يكفر، ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه»[٣].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: هو لا غيره، فكان الواجب أن يوحدوه ويعبدوه.

* * *

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

* * *

قدم خلق السموات والأرض على علمه بما فيهما؛ لأن خلقه لهما

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ١١٩-١٢٠.
(٣) فتح القدير ٥/ ٢٢٩.

أسبق ، فذكر أنه يعلم ما فيهما ، أي : بعد إيجادهما .

ونحوه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ فإنه ذكر ذلك بعدما ذكر أنه صورهم ، فإنه يعلم ما يسرون وما يعلنون بعد إيجادهم ، وإن كان علمه العام هو السابق لكل شيء . وقد سطر سبحانه علمه بما كان وما سيكون قبل خلق الكائنات .

وظاهر أن قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يناسب قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ .

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ .

بالغرض الصحيح والحكمة البالغة[(١)] .

و(ذات الصدور) الأسرار المستكنة في صدور الناس ، أو القلوب التي في الصدور[(٢)] .

لقد قدم خلق السموات والأرض على تصوير الإنسان لأن خلقه لهما أسبق .

وأخّر ذكر علمه بما في السموات والأرض بعد خلق الإنسان ليشمل علمه الإنسان أيضاً ؛ لأنه مما في الأرض . ولو قدم ذكر علم ما في السموات والأرض على خلق الإنسان لربما ظن ظان أن ذلك لا يشمل العلم بالإنسان .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٧ .

(٢) روح المعاني ١١/ ٢١١ .

وناسب التقديم والتأخير السياق من جهة أخرى ، فإنه قدم ذكر علمه بما في السموات والأرض لما قدم خلق السموات والأرض. ولما أخر ذكر الإنسان أخر ذكر علمه بما يسرون وما يعلنون.

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

لم يكرر (ما) فلم يقل (وما في الأرض) ، وقد يكررها في مواطن ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦].

وفي مواطن أخرى لا يكرر (ما) وذلك كآية التغابن هذه ، وكقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠].

والتكرار قد يفيد التوكيد ، وقد يفيد التفصيل. فالتكرار من أساليب التوكيد اللفظي. وقد يفيد التفصيل بخلاف الإيجاز ، وقد يكون لأغراض أخرى.

ومن الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا ختم الآية بالعلم المطلق وإحاطته بكل شيء ، أي: بنحو قوله: ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كرر (ما) فقال: ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وذلك نحو ماجاء في آية المائدة

٩٧ ، وآية الحجرات ١٦ ، وآية المجادلة ٧ .

قد تقول: ولكنه قد ذكر سعة علمه في التغابن فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

فذكر العلم بما يسرون وما يعلنون وأنه عليم بذات الصدور ومع ذلك لم يكرر (ما) فلم يقل: (وما في الأرض) مع دلالته على سعة علمه ، فلم ذاك؟

فنقول: إن قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أشمل في الدلالة على العلم من قوله: ﴿ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ و﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإنه خصص العلم بما يسرون وما يعلنون وبما في الصدور. ولاشك أن العلم بكل شيء أوسع بكثير من هذا ، فإن هذا جزء يسير من علمه سبحانه ، فكرر (ما) في موضع الإحاطة التامة.

قد تقول: ولكنه قال في آل عمران: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩] .

فكرر (ما) مع أنها شبيهة بآية التغابن ، فقد ذكر إخفاء ما في الصدور أو إبداءه ، وهو شبيه بالإسرار والإعلان ، فما الفرق؟

والجواب أن السياقين مختلفان من أكثر من وجه:

١ ـ منها أنه فصل في سياق آل عمران في شؤون أهل الأرض ما لم يفصله في التغابن ، فقد ذكر قبل الآية ما يتعلق بأهل الأرض وأحوالهم وتصريف الله لهم ولما في الأرض ما لم يذكر في التغابن ، فقد قال:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

في حين لم يقل قبل آية التغابن في أهل الأرض إلا قوله: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

فناسب هذا التفصيلُ التفصيلَ بذكر (ما) في آية آل عمران ، وقد ذكرنا أن التكرار قد يكون للتفصيل.

٢ ـ لقد ختم آية آل عمران بالقدرة الشاملة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ومن مقتضيات القدرة الشاملة العلم الشامل ، فالقادر على كل شيء ينبغي أن يكون عالماً بكل شيء ، وإلا فكيف يكون قادراً على شيء وهو ليس عالماً به؟!.

وما أجلّ التناسب بين القدرة الشاملة والعلم الشامل!.

٣ ـ لقد قال في آية التغابن: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ فذكر الإسرار والإعلان.

وقال في آل عمران: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ .

فذكر الإخفاء والإبداء والإخفاء كأنه «أخفى من السر قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات

والبضائع ، تقول: (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي: سترتها.

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «خفي الشيء خفية ؛ إذا استتر. وأخفيته: أوليته خفاء ، وذلك إذا سترته ، ويقابل به الإبداء والإعلان»[١] .

وقال تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] .

فقال: ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ بعد قوله ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ولم يقل: (وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار ، فإنك قد تسرّ شيئاً لشخص وأنت تبتغي غرضاً من ذلك تخفيه في نفسك ، فربنا يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت»[٢] .

والإبداء أعم من الإعلان ، فقد يكون الإبداء من غير إعلان وقد يكون بإعلان. فالإبداء هو الإظهار ، و(بدا) ظهر ، قال تعالى: ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ [طه: ١٢١] وتقول: (بدا لي الأمر) أي: ظهر.

فذكر في آل عمران ما هو أعم ، فناسب ذكر العموم التفصيل في قوله: ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ومن طريف التناسب في العموم والخصوص في هاتين السورتين أنه

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).

(٢) على طريق التفسير البياني ج٣ في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

قال في آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وقال في التغابن: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

فذكر من السعة في المشيئة في آل عمران ما لم يذكره في التغابن ، فقوله: ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أوسع مما ذكر في قوله: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فهذا جزء من مشيئته ، ولو شاء غير ذلك لفعل .

وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أوسع من قوله: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فقوله: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ بعض صفات الألوهية .

فما في آل عمران من العموم والشمول في هذه الآية مناسب لقوله: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ .

والخصوص في آية التغابن يناسب الخصوص في قوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ ﴾ .

ومن الملاحظ في آيتي آل عمران والتغابن من جهة أخرى أنه قدم في آية آل عمران علمه بإخفاء ما في الصدور أو إبدائه على علم ما في السموات وما في الأرض فقال: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ .

وقدم في التغابن علمه بما في السموات والأرض على علمه بما يسرون وما يعلنون ، ذلك أنه في آية التغابن قدم ـ كما ذكرنا ـ خلق السموات والأرض على خلق الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣] فناسب تقديم علمه بما في السموات والأرض.

وأما في آية آل عمران فالسياق في ذكر أهل الأرض وما في الأرض، فقد قال قبل الآية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ. . . ﴾.

وقبلها: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. . . ﴾.

وبعدها إنما هو في الكلام على أهل الأرض، فناسب تقديم ما يتعلق بهم.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾.

يقدم ربنا سبحانه السر على العلن في الغالب، غير أنه قد يقدم الإعلان على الإسرار إذا كان السياق يقتضي ذلك، فقد قال في سورة نوح مثلاً: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [الآية: ٩] ذلك لأنه في مقام الدعوة والتبليغ، والأصل في التبليغ الإعلان؛ ولذا قال قبل الآية: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ [الآية: ٨].

ثم إنما أرسل هو لينذر قومه، وإنذار القوم إنما يكون. بالإعلان، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٧] فقد قدم الجهر على الإخفاء، والمقام يقتضي ذلك، فإن المقام في الإقراء، قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾.

والإقراء إنما يكون جهراً لا إسراراً، فقدم ماهو أنسب، ونحوه قوله

تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٤].

فقدم الإبداء على الإخفاء، ذلك أنه السياق في الإبداء، فقد قال قبلها: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الآية: ٥٣].

والسؤال إنما يكون بالإبداء.

ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الآية: ٥٣] والنكاح إنما يكون بالإعلان والإظهار، وبعدها قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الآية: ٥٨].

وذلك إنما يكون بالجهر من القول، فناسب تقديم الجهر.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فقدم الإبداء على الإخفاء؛ لأنه قال: ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ والحساب إنما يكون على الإبداء لا على الإخفاء بخلاف قوله: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

فقدم الإخفاء على الإبداء؛ لأنه قال: ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ والإخفاء أدل على العلم.

فناسب كل تعبير موضعه.

وكل ما قدم في ذلك أو أخر إنما هو لمطابقة مقتضى الحال.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قد تقول: لقد قال في سورة هود: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾ فأكد علمه بـ (إن).

وقال هاهنا: ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾ من غير توكيد.

وذلك أنه ذكر في سياق آية هود ما يتعلق بعلمه فيما يفعله المذكورون، فقد قال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ولم يذكر في آية التغابن نحو هذا، وإنما قال: ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

فلما ذكر في آية هود فعلهم وعلمه به أكد علم ماتخفيه صدورهم، ولما لم يذكر مثل ذلك في التغابن لم يؤكد.

فقد قال في هود:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ ﴾ وهذا يتعلق بأفعالهم.

وقال: ﴿ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ ﴾ وهذا يتعلق بأفعالهم أيضاً.

وقال: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ ﴾ وذكر نحو هذا في التغابن، غير أنه لم يذكر أمراً آخر يتعلق بهم.

فلما زاد ما ذكر في هود فيما يتعلق بهم عما ذكره في التغابن أكد ذلك بـ (إن).

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

* * *

قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ ولم يقل (من قبلكم) في حين قال نحو ذلك، أعني بالإضافة، في أكثر من موضع، فقد قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [إبراهيم: ٩].

بذكر المضاف إليه.

ولعل من أسباب عدم ذكر المضاف إليه في آية التغابن أنه عمم، فلم يذكر أقواماً بأعيانهم، وإنما قال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ فلم يذكر قوماً.

في حين لما ذكر المضاف إليه ذكر الأقوام فقال: ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .

فناسب الذكر الذكر، وناسب عدم ذكر المضاف إليه عدم ذكر الأقوام.

﴿ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ .

الوبال: الثقل والشدة والسوء.

ومعنى ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ «أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حلّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي»[١].

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الآخرة.

فذكر ما لاقوه في الدنيا وما سيلاقونه في الآخرة وهو العذاب الأليم.

* * *

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

* * *

أي: إن ما ذاقوه من العذاب وما سيلاقونه في الآخرة إنما هو بسبب كفرهم وتوليهم.

والهاء في (أنه) ضمير الشأن[٢]، وذلك لتعظيم هذا الأمر الذي أفضى بهم إلى ذلك.

وقال: ﴿ بِأَنَّهُۥ ﴾ ولم يقل (بأنهم) لأنه أراد تعظيم هذا الأمر على العموم، سواء كان منهم أم من غيرهم، ولو قال (بأنهم) لربما أفهم أن ذلك خاص بهم، ولو كان من غيرهم لكان الأمر ليس بهذه الوخامة، أو لكان له شأن آخر.

قد تقول: ولكنه قال في موضع آخر: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ

(١) ابن كثير ٤/ ٣٧٤، فتح القدير ٥/ ٢٢٩.
(٢) انظر: الكشاف ٣/ ٢٣٧، البحر المحيط ٨/ ٢٧٧.

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢٢].

فقال: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ ﴾ ولم يقل (بأنه) كما قال في آية التغابن، فما الفرق؟

فنقول: إن السياقين مختلفان. وقد ذكرنا أن الضمير في (أنه) ضمير الشأن، وهو يفيد تعظيم هذا الأمر على العموم.

وأما قوله (أنهم) فإن الأمر خاص بهم، فإن الإسناد إليهم، وكل مناسب لسياقه الذي ورد فيه من أكثر من جهة.

١ ـ فقد قال قبل آية غافر: ﴿ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١].

فقال: ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ بالإضافة إلى ضميرهم.

وقال في آية التغابن: ﴿ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ فحذف المضاف إليه، والإضافة تفيد التبيين والتخصيص.

فلما أضاف إلى ضميرهم في غافر فقال: ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال: (بأنهم) بذكر ضميرهم.

ولما لم يذكر المضاف إليه في التغابن قال: (أنه) بضمير الشأن، فلم يذكر ضميرهم.

٢ ـ ذكرنا أن ضمير الشأن إنما هو لتعظيم الأمر.

وما ذكره في التغابن أشد وأعظم.

فقد قال في التغابن: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ

﴿يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

وقال في غافر : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر : ٢٢] .

فذكر في التغابن من صفات الكفر ما هو أشد فقال :

١ ـ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وهو إنكار للرسل على العموم .

٢ ـ ﴿فَكَفَرُوا﴾ .

٣ ـ ﴿وَتَوَلَّوا﴾ .

وقال في غافر :

﴿فَكَفَرُوا﴾ .

فذكر شيئاً واحداً مما ذكره في التغابن ، فزاد في التغابن التولي وإنكار صفة الرسالة للبشرية .

فكان هذا أعظم وأشد ، فجاء بالضمير الذي يدل على عظم هذا الشأن .

وهذا من الوضوح بمكان .

﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

قال : ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ليدل على استمرار المجيء بالبينات فقوله ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ﴾ يفيد الاستمرار ، ولو قال : (أتتهم) لدل على مجيء البينات ، ولم يدل على الاستمرار تصريحاً .

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ .

وذلك إنكار أن يكون الرسل بشراً مثلهم ،وهذا شأن كثير من المنكرين على مدار التاريخ ، فقد ذكر ذلك قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، فقد كانوا يقولون لرسلهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] .

وكذلك قال كفار قريش: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣] .

وقال الله لرسوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ .

أي: كفروا بالرسل ، وبما جاؤوا به وأعرضوا عنهم ونكلوا عن العمل [1] ، مع تتابع البينات واستمرارها.

والتولي في الأصل ترك المكان والانصراف عنه ، قال تعالى في قصة موسى بعد ما سقى للمرأتين: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ [القصص: ٢٤] أي: انصرف إلى الظل.

وقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] .

وقال عن قسم من الصحابة الفقراء: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] أي: انصرفوا عنه.

والتولي قد يكون بالإعراض الذي ليس من الكفر ، وقد يكون التولي

(١) فتح القدير ٥/ ٢٢٩ ، ابن كثير ٤/ ٣٧٤.

كفراً وهو الإعراض عن الرسول والرسالة .

فلقد قال عن جماعة من الصحابة انهزموا يوم أحد[(١)]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] .

وقد يكون كفراً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية: ٢٣] .

وقال: ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ ﴾ [التغابن: ٦] .

وقال: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ ﴾ [آل عمران: ٢٠] .

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] .

وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

وقال: ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣] .

لقد قدم الكفر على التولي في آية التغابن هذه فقال: ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ ﴾ .

وقدم التولي على الكفر في موضع آخر فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية: ٢٣] .

والواو لا تفيد الترتيب ، وإنما هي لمطلق الجمع ، وإن التقديم

---

(١) انظر: فتح القدير ١/٣٥٨.

والتأخير بحسب السياق كما ذكرنا في أكثر من موضع.

فالسياق في التغابن إنما هو في ذكر الكافرين فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التغابن: ٥].

وقال: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ﴾ [التغابن: ٧].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [التغابن: ١٠].

فناسب تقديم الكفر.

وأما في الغاشية فالسياق مناسب لتقديم التولي، فقد قال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.

وهؤلاء تولوا عن التذكير وانصرفوا عنه وأعرضوا.

وكثيراً ما يكون الإعراض والتولي إعراضاً وتولياً عن التذكير.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢].

وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ [السجدة: ٢٢].

فذكرُ التولي مناسب للتذكير والتبليغ.

فلما قال سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ناسب تقديم التولي.

فناسب كل تعبير موضعه.

ومن لطيف المناسبات ما قاله سبحانه في آخر الغاشية: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ ذلك أنه لما قال: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ والتولي هو الانصراف، والمنصرف لابد أن يؤوب إلى مكانه، قال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أي: إن هذا المتولي المنصرف عن التذكير إلينا إيابه، أي: سيؤوب إلينا وليس إلى جهة أخرى.

﴿ وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

أي: لم يلتفت إليهم واطّرحهم «حيث أهلكهم وقطع دابرهم»[١]، من استغنى عن الشيء فلم يلتفت إليه.

﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين وعن إيمانهم وطاعتهم[٢].

﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي: محمود على جهة الثبوت والدوام.

وقد تكلمنا في هذين الوصفين في أكثر من موضع، من ذلك ما ذكرناه في تفسير سورة لقمان في قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

ولئلا يظن أن الاستغناء إنما حصل بعد هلاكهم قال: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي: إن الله غني حميد على جهة الدوام قبل ذلك وبعده.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ من دون توكيد.

وقال في سورة الممتحنة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ بالتوكيد

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٢٢.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٢٢.

بـ (إن) وذكر ضمير الفصل ، وتعريف الغني الحميد ، مع أن السياق في التولي في الموضعين ، فقد قال في آية التغابن : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

وقال في آية الممتحنة : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

فنقول : ليس الأمر على ما ظننت ، وإنما السياق مختلف في الموضعين .

فقد قال في الممتحنة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ والخطاب للمؤمنين ، والسياق في أمر آخر غير ما في التغابن ، فإن هذه الآية والتي قبلها في سياق آخر .

فإن أول سورة الممتحنة هو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ . . . ﴾ .

وسبب النزول إنما هو في أحد الصحابة ، وهو حاطب بن أبي بلتعة ، أرسل كتاباً إلى أناس من المشركين في مكة يخبرهم بتوجه الرسول إليهم لفتح مكة ؛ لتكون له عندهم يد ، يدفع بها عن أهله وماله[١] .

فنزلت آيات تبين موقف إبراهيم والذين معه من قومه والبراءة منهم ، وطلب إليهم أن تكون لهم أسوة فيهم ، لا أن يتخذوا عندهم يداً ويوادّوهم ليرجوا نفعهم فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٥ وما بعدها ، فتح القدير ٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

﴿ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الآية: ٤] .

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ .

فينبغي أن تبرؤوا منهم لا أن توادّوهم ، وأن ترجوا الله واليوم الآخر لا أن ترجوهم ، فإن الله هو الغني ، وليس هؤلاء ، بل إن الله هو الغني الحميد ، وليس ثمة غني غيره ، وهو المحمود على الدوام ، فارجوا الله واليوم الآخر لما تريدون ، ولا ترجوا أولئك ؛ فإنه ليس عندهم ما ترجونه .

فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ بالتعريف والقصر والتوكيد وحذر من يتولى أنه لا ينال شيئاً ولا يبلغ مراداً .

وليس في سياق التغابن شيء من ذلك ، فلم يؤكد ولم يقصر .

فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

* * *

الزعم قيل أكثر ما يكون فيما يشك ولا يتحقق ، وقيل: أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب ، وقد يطلق على الظن والكذب ،

وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل[١].

ولم يرد في القرآن إلا في الذم.

فقد ادعى الذين كفروا أن لن يبعثوا، فأمر الله سبحانه رسوله أن يقسم على أن البعث سيكون، وسيحاسبون على أعمالهم.

ونفوا البعث بـ (لن) المؤكدة لنفي المستقبل.

وكان الجواب بالقسم وتوكيد الفعل الدال على الاستقبال، وقال: إن ذلك يسير على الله.

وقدم الجار والمجرور (على الله) للحصر، أي: إن ذلك على الله وحده يسير، وليس يسيراً على غيره.

* * *

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾.

* * *

دعاهم إلى الإيمان بالله ورسوله وما أنزل إليه؛ لينجوا من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

فقد ذكر نبأ الذين كفروا من قبلهم، وأنهم ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، وأن لهم عذاباً أليماً في الآخرة.

وذكر ما زعمه الذين كفروا من عدم إيمانهم بالبعث وما سيجره عليهم عدم الإيمان، فدعاهم إلى الإيمان؛ لينجوا من عذاب الله ويفوزوا.

---

(١) انظر: المصباح المنير (زعم)، لسان العرب (زعم)، روح المعاني ٢٨/ ١٢٢.

وذكر الإيمان بالله والرسول وما أنزل إليه وسماه نوراً فقال: ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ فذكر النور مناسبة لما مر قبلها وهو قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ .

والنور إنما هو للهداية ، فهو مناسب لقوله: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ .

ومناسب لقوله: ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ لأن الأمور تتضح وتتبين بالنور ، والبينات إنما هي نور.

وهو مناسب لقوله بعدها: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ .

والنور إنما هو للهداية ، والإيمان نور ، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [الأنعام: ٣٩] .

فذكر أن الذين كفروا في الظلمات.

جاء في (تفسير الرازي) في قوله: ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ «وهو القرآن ، فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى بالنور في الظلمات»[١] .

وجاء في (روح المعاني): «﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، فإنه بإعجازه مبين لغيره ، كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بأمر الإنزال ، وفي ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه»[٢] .

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٥٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٢٣ .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

الخبير : هو العالم ببواطن الأمور .

وناسب هذا ما جاء في الآية التي قبلها : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فكأن معنى هذه الآية تتمة لمعنى الآية التي قبلها ، وكأنهما متتاليتان . فلو قيل : (ثم لتنبؤن بما عملتم والله بما تعملون خبير) لكان في غاية الحسن والمناسبة .

وقد بنى الفعل في الآية السابقة للمجهول فقال : ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ وقد بين في هذه الآية من الذي ينبئ ويعلم بواطن الأمور ، وقدم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لأن السياق في العمل ؛ فقد قال في أوائل السورة : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، وقال فيما بعد : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ، وقال بعدها : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ فناسب تقديم العمل .

وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) أنه «إذا كان السياق في عمل الإنسان قدم عمله فيقول : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وإذا كان السياق في غير العمل ، أو كان في الأمور القلبية ، أو كان الكلام على الله ؛ قدم صفته فيقول : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾»[1] .

وقد ضربنا لذلك أمثلة فلا نعيد القول فيه .

وقال هاهنا : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فذكر الخبرة .

وقال في آية سابقة : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾ فذكر البصر .

---

(١) من أسرار البيان القرآني ١٣٣ ـ ١٣٤ .

ولعل من أسباب ذلك أنه في الآية السابقة ذكر الخلق فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ وذلك مما يبصر فقال: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقال بعدها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وكل ذلك مما يبصر، فناسب ذكر البصير.

وأما الآية التي ذكرت فيها الخبرة فهي في الإيمان، قال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾، والإيمان أمر قلبي، فناسب ذكر الخبرة، وهي العلم ببواطن الأمور.

وأضاف الرسول إلى ضميره سبحانه تعظيماً له.

* * *

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩].

* * *

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ أي: لتنبؤن يوم يجمعكم، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار (اذكر) مقدراً، وقيل غير ذلك[١].

و(يوم الجمع) هو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٨/ ١٢٣.

والآخرون. وقيل: جمع أهل السموات وأهل الأرض[١].

جاء في (تفسير ابن كثير) في قوله «يوم الجمع»: «وهو يوم القيامة سمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾»[٢].

وقال: ﴿ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾: واللام للتعليل، أي: لأجل ذلك اليوم للدلالة على عظمة ذلك اليوم، ولم يقل (فيه) فإنه لابد لكل جمع من يوم يجمع فيه ذلك الجمع، وإنما قال ﴿ لِيَوْمِ ﴾ ليدل على أن الجمع لأجل ذلك اليوم.

وقد ذهب بعضهم إلى أن اللام بمعنى (في)[٣].

ولا أراه سديداً، فإنه لم يأت بـ (في) في القرآن في نحو هذا التعبير، وإنما يأتي باللام، أو قد يأتي بـ (إلى) للدلالة على انتهاء الغاية، أي: يستمر جمعهم إلى ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٩].

---

(١) انظر: الكشاف ٣/ ٢٣٨، البحر المحيط ٨/ ٢٧٨، تفسير الرازي ١٠/ ٥٥٤.

(٢) ابن كثير ٤/ ٣٧٥.

(٣) انظر: روح المعاني ٢٨/ ١٢٣.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّجۡمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّشۡهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] للدلالة على عظم ذلك اليوم.

وقد حذرنا ربنا من ذلك اليوم وأمرنا بخشيته، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧].

وقال: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ [الإنسان: ٧].

وقال: ﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

وعداه أيضاً بـ(إلى). قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال: ﴿ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ ﴾ [النساء: ٨٧].

وقال: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الواقعة: ٥٠].

للدلالة على الانتهاء.

﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾.

الغبن بخس الحق وفوت الحظ والنقص في الثمن وغيره.

والمراد بيوم التغابن اليوم الذي يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، فيغبن فيه أهل النار بخسران أنفسهم وأهليهم.

وقيل: «سئل بعضهم عن يوم التغابن فقال: تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا»[(١)].

وقيل: هو «يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار.

وقيل: هو «يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس»[(٢)].

وقيل: التغابن «هو فوت الحظ، والمراد بالمغبون: من غبن في أهله ومنازله في الجنة، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان»[(٣)].

وفي (فتح القدير): «يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية... فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة»[(٤)].

فهو يوم التغابن العام، يغبن فيه أهل الكفر والضلال، ويغبن فيه أهل الحق؛ لأنهم تركوا ما لو فعلوه لنالوا ما لم ينالوه من الدرجات العلى، فالكل مغبون على حسب عمله.

فهو يوم التغابن.

ومن لطيف التناسب في ذكر التغابن أنه ذكر بعده أصحاب الجنة

---

(١) المفردات في غريب القرآن (غبن).
(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٢٣، وانظر: الكشاف ٣/ ٢٣٨، البحر المحيط ٨/ ٢٧٨.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ١٢٤.
(٤) فتح القدير ٥/ ٢٣٠.

وأصحاب النار ، فأحدهما غابن والآخر مغبون ، فأصحاب النار مغبونون ، عافانا الله من ذلك .

* * *

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩] .

* * *

قال هاهنا: ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ ، وقال في موطن آخر: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٧١] بذكر ﴿ مِّن ﴾ التي تفيد التبعيض .

وسياق كل من الآيتين يبين سبب ذلك .

فقد قال في آية البقرة: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١] .

فآية التغابن إنما هي في الإيمان بالله والعمل الصالح عامة: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ .

أما آية البقرة فهي في إيتاء الصدقات ، وهي جزء من العمل الصالح ، فما ذكر في آية التغابن أعم وأعلى ، فناسب ذلك تكفير السيئات عامة .

فناسب العمومُ العمومَ ، وناسب البعضُ التبعيضَ .

قد تقول: لقد قال في سورة الطلاق: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ فزاد في آية التغابن قوله: ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ دون آية الطلاق «ذلك أن آية التغابن

خطاب للكافرين ، وقد دعاهم إلى الإيمان فقال: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ [الآية: ٩] .

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ ﴾ [الطلاق: ١١] .

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة ، وسيئاتهم غير منقطعة ؛ أولى من ذكرها مع المؤمنين»[١] .

جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عما خصص الآية الأولى بقوله: ﴿ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ وإخلاء الآية الثانية منه؟ .

والجواب أن الأولى جاءت بعد قوله مخبراً عن الكفار فقالوا: ﴿ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ ﴾ فهذه سيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمن بالله بعدها فقال: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا ﴾ في مستقبل عمره يمسح عنه ما سبق من كفره ، ثم يوجب له جنات.

والآية الثانية لم يتقدمها خبر عن كفار بسيئات فيوعدوا بتكفيرها إذا أقلعوا عنها وتابوا منها وعملوا الصالحات مكانها ، وكان مضموناً

(١) التعبير القرآني ١٠٨ .

تكفير السيئات عند الإيمان وعمل الصالحات ، فلم يحتج إلى ذكره كما كان الأمر في غيره»[١] .

ومن الملاحظ أنه ختم آية الطلاق بقوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ وهو مناسب لما ورد في السورة وتكرر فيها من ذكر الإنفاق والرزق .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ . . . وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ [الآية : ٦] .

وقال : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ .

فناسب ذكر الرزق الحسن في الآية .

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ .

* * *

ذكر التكذيب بالآيات إضافة إلى الكفر ، وذلك مناسب لما ورد في السورة ؛ فقد قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ﴾ [الآية : ٦] .

والبينات : إنما هي آيات من آيات الله .

---

(١) درة التنزيل ٤٨٨ .

وقال: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [الآية: ٨].

والنور الذي أنزله إنما هو القرآن وما فيه من آيات.

والتكذيب بالآيات يشمل الآيات التي أوتيها رسل الله من المعجزات وغيرها.

ويشمل آيات الله في كتبه ومنها آيات القرآن الكريم.

فالتكذيب بالآيات يشمل كل أنواع الآيات.

قد تقول: لقد قال في الآية التي قبلها: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ بأسلوب الشرط.

وقال هاهنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ بذكر الاسم الموصول، فما الفرق؟

والذي يبدو أن سبب الاختلاف أنه قال قبل الآية الشرطية:

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾. فطلب منهم الإيمان بالله ورسوله، ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا... ﴾

فهذه عاقبة من يستجيب.

وأما قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوٓا۟ ﴾ بالاسم الموصول والفعل الماضي فلأنه تقدم ذكر الكافرين، وذكر الذين كفروا من الماضين، وأخبر عنهم بالماضي فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ ﴾.

وقال: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي . . . ﴾ [الآية: ٧] .

فناسب الإخبار عنهم بالماضي فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

ولم يسبق ذكر للمؤمنين في الماضي، وإنما طلب الإيمان.

فجاء مع المؤمنين بأداة الشرط الدالة على الاستقبال.

وجاء مع الكافرين بالاسم الموصول والفعل الماضي.

فناسب كل تعبير ما ورد من السياق.

جاء في (تفسير الرازي): «قال تعالى في الإيمان: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ بلفظ المستقبل، وفي الكفر: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بلفظ الماضي.

فنقول: تقدير الكلام: ومن يؤمن من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات، ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار»[١] .

والملاحظ أنه لم يأت الخلود مع أصحاب الجنة بلفظ المفرد، وإنما يؤتى به بلفظ الجمع دائماً، فلم يقل في أصحاب الجنة (خالداً) وإنما يقول (خالدين) بلفظ الجمع دائماً بخلاف أصحاب النار، فإنه يؤتى به بلفظ الجمع أو الإفراد بحسب السياق.

فإنه يؤتى مع أصحاب الجنة بلفظ الجمع للاستئناس، فإن الجمع يفيد الأنس بخلاف الوحدة. وقد ذكرنا نحو ذلك في أكثر من مناسبة.

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر أصحاب الجنة أو

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٥٥.

أصحاب النار ، أعني ذكر كلمة (أصحاب) مضافة إلى الجنة أو إلى النار ، لم يذكر الأبد ، وإنما قد يكتفي بذكر الخلود ، فإن كلمة (أصحاب) تغني عن الأبد ، فإنه صاحبها .

وهو من دقيق الإيجاز .

* * *

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

* * *

أطلق الإصابة فلم يذكر مفعولاً أو مكاناً لها أو زماناً أو غير ذلك ، فلم يقل (ما أصابكم) أو نحوه ، ولم يقل (في الأرض) أو ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أو غير ذلك .

وجاء بـ (من) الاستغراقية ، فحيثما حلّت مصيبة ؛ فإن ذلك لا يكون إلا بإذنه وأمره .

قد تقول : لقد قال في سورة الحديد : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ ﴾ [الآية : ٢٢] .

فزاد ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ على ما في التغابن «وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن ، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها . جاء في سورة الحديد : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى

ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ .

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

فأنت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد مالم يذكره في التغابن ؛ ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها»[١] .

جاء في (البرهان) للكرماني أنه «فصل في هذه السورة وأجمل هناك موافقة لما قبلها في هذه السورة ، فإنه فصّل أحوال الدنيا والآخرة فيها بقوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ »[٢] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ما ذكره في سورة التغابن أعم مما ورد في سورة الحديد ، فقد قال في سورة الحديد: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ فذكر المصيبة في الأرض أنفس المخاطبين.

---

(١) التعبير القرآني ١١٣ .

(٢) البرهان لمحمود بن حمزة الكرماني ٣٠٩ ـ ط٢ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ج.م.ع. ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

أما في سورة التغابن فإنه لم يخصص ، بل أطلق كما ذكرنا ، فقال: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ وهو يشمل كل شيء يمكن أن تقع فيه مصيبة ؛ ولذا ختم بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ .

﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ .

قال بعد آية الحديد التي ذكر فيها المصيبة في الأرض والأنفس: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ .

وقال في آية التغابن : ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ ، ولاشك أن قوله ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ أعم من قوله : ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ فإن هذا جزء من هداية القلب ، فهداية القلب عامة .

ولذا ذكر في تفسير ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ كلام كثير على العموم ، وأنه ليس نصاً في أمر واحد ، فقد قيل : إن معناه «يهد قلبه لليقين» ، وقيل : «أي : يلطف به ويشرحه لازدياد الخير والطاعة»(١) .

وقيل : معناه : «يهد قلبه عند المصيبة . . . للتسليم لأمر الله ، ونظيره قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة ١٥٦ ـ ١٥٧] .

قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء»(٢) .

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٨/ ١٢٤-١٢٥ ، الكشاف ٣/ ٢٣٨ .
(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٥٥٥ .

وفي (فتح القدير) «يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء»(١).

إن قوله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يحتمل كل ما قيل ، فهو تعبير عام يحتمل عموم الهداية.

وواضح أن هذا أعم من قوله: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه ، فقد ناسب العمومُ العمومَ في قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ ﴾ فأطلق المصيبة وأطلق الهداية.

وناسب الخصوصُ الخصوصَ في قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ فعقب بقوله: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ .

وهو من لطيف المناسبات.

ومن لطيف التناسب في السياقين أنه قال في آية الحديد: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ وبعدها: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

وقال قبل آية التغابن: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وبعدها قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ . . . ﴾ الآية [الحديد: ٢٣] .

---

(١) فتح القدير ٥/ ٢٣١.

وواضح أن ماورد في آية التغابن أعم مما ورد في آية الحديد.

فقد قال في آية الحديد: ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾.

وقال في التغابن: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾.

ولا شك أن المذكورين في آية الحديد هم قسم ممن لا يحبهم الله.

فما ورد في التغابن أعم وأشمل، فقد يدخل المذكورون في سورة الحديد فيمن ذكروا في آية التغابن.

فناسب العموم في التغابن ما ذكرناه من العموم.

وناسب الخصوص في آية الحديد ما ورد فيها من الخصوص.

ومن لطيف ذلك أيضاً ما ورد بعد قوله تعالى في التغابن: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وذلك قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقال بعد آية الحديد: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

ومن المعلوم أن قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أعم وأشمل من قوله: ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ فهذا جزء من إطاعة الله وإطاعة الرسول.

فناسب العمومُ العمومَ من جهة أخرى.

وناسب الخصوصُ الخصوصَ.

ونلخص ما ورد في التناسب في العموم والخصوص في هذين

الموطنين من سورة التغابن والحديد بما يأتي :

١ ـ قوله في التغابن : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ .

وما في التغابن أعم .

٢ ـ قوله في التغابن : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

وما في التغابن أعم .

٣ ـ وقوله في التغابن : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

وما في التغابن أعم ؛ إذ ما في الحديد إنما هو جزء من صفات الذين كفروا وكذبوا .

٤ ـ قوله في التغابن : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ .

وما في التغابن أعم ؛ إذ القيام بالقسط إنما هو جزء من إطاعة الله وإطاعة الرسول .

٥ ـ قوله في التغابن: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله في الحديد: ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ .

وظاهر أن ما في التغابن أعم ، فقد جعل علمه عاماً بكل شيء ، وأما في الحديد فالكلام على المصيبة .

* * *

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢] .

* * *

قال ههنا: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٢] .

وقال في المائدة: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

فزاد في آية المائدة قوله: ﴿ وَٱحْذَرُواْ ﴾ وقوله: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ «مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك .

وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجره عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ .

فناسب ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير .

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد ، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلما لم يرد هنا نهي عن محرم متأكد التحريم . . . لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، وليس عكس الوارد بمناسب، والله أعلم»[١] .

وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) أنه قد ورد في القرآن: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ بتكرار لفظ الطاعة، وورد نحو قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] من دون تكرير لفظ الطاعة .

وقد ذكرنا أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق لله وحده ، ولم يذكر فيه الرسول ولا أية إشارة إليه ؛ بخلاف ما تكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول[٢] .

وهنا تكرر لفظ الطاعة ، وقد ذكر الرسول في السياق فقال: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

والبلاغ المبين أي: المبين للحق ، المظهر له ، والذي يصل إلى عموم المكلفين.

«فالبلاغ المبين يتضمن أمرين :

---

(١) التعبير القرآني ١٠٩ ـ ١١٠ ، ملاك التأويل ١/ ٢٧٥ .

(٢) انظر : التعبير القرآني ١٥٣ .

الأمر الأول: إيضاح الرسالة وتبليغها كلها ؛ بحيث لايبقى منها شيء غير مبلغ ولا غير معلوم.

والأمر الآخر: أن يكون التبليغ شاملاً لكل من أرسل إليهم ، واصلاً إلى كل فرد ، فلا يترك سبيلاً لإيصال الدعوة إلى كل من تعنيه.

وإلا لم يكن بلاغاً مبيناً»[1].

لقد قال ههنا: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

بإضافة الرسول إلى ضمير التعظيم.

وكذا قال في آية المائدة: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور ٥٤] ، [العنكبوت: ١٨] بتعريف الرسول بـ (أل).

ولذلك أكثر من سبب ، ولعل منها:

أنه في آيتي التغابن والمائدة أن القول لله سبحانه ، والخطاب منه سبحانه ، إذ قال قبل آية التغابن: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ... ﴾ ويستمر الكلام على الله سبحانه ، فلما كان الكلام من الله سبحانه والأمر منه قال: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ بإضافة الرسول إليه.

وكذا السياق في آية المائدة ؛ فإن الخطاب من الله للمؤمنين ، قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ

---

(١) على طريق التفسير البياني ٢/ ٦٠.

﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ويستمر الكلام إلى أن يقول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ . . . فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

فأضاف الرسول إلى ضميره سبحانه.

أما قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في العنكبوت، فهذا من كلام سيدنا إبراهيم لقومه على ما يظهر[1] .

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ . . . وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

فهنا أمران:

الأول: أنه من كلام سيدنا إبراهيم.

والآخر: أنه يتكلم على الأمم السابقة ورسلهم: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ .

و(أل) ههنا للجنس وليست خاصة برسول معين، فناسب التعريف بـ (أل) الجنسية.

وأما آية النور فإنها تبدأ بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ فهو أمر للرسول أن يبلغ قومه، فقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ من قول الرسول المأمور بتبليغه، والكلام فيما بعد على الغائب وليس فيه إشارة لفظية صريحة إلى الله سبحانه، بل السياق أصلاً في الغيبة. والآية

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٠/ ١٤٥.

هي: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

ومن الملاحظ في الآية:

١ ـ أنها تبدأ بأمر الرسول ليبلغ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾.

٢ ـ أنه قال: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ بالبناء للمجهول، والفاعل محذوف، والذي حمّل رسول الله وحمّلكم إنما هو الله فلم يذكره.

٣ ـ أنه قال: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ولم يقل: (على رسولنا) مناسبة لحذف الفاعل.

فعدم الإضافة إلى ضمير المتكلم، وهو الله مناسب لعدم ذكر الفاعل وهو الله سبحانه، وذلك للبناء للمجهول.

٤ ـ قال في آية النور: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ والأصل (تتولوا) فحذف التاء من الفعل، والكلام موجه للمخاطبين بدليل ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ بالخطاب، فحذف التاء من (تتولوا) فصار ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وهذا الحذف مناسب لحذف الفاعل في الفعلين وبنائهما للمجهول.

٥ ـ قال في آية النور: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ بالفعل المضارع كما ذكرنا، أي: (تتولوا)، وقال في آيتي المائدة والتغابن ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ بالفعل الماضي.

ولعل من أسباب ذلك أن السياق الذي وردت فيه آية النور في الاستقبال، فقد قال قبل الآية: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ

لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

فقوله : ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ إنما هو افتراض لما سيقع في المستقبل .

فناسب ذلك الإتيان بالفعل المضارع الذي قد يكون للاستقبال ، فناسب الاستقبال الاستقبال .

وأما ما ذكر في سياق آية التغابن فهو في حال المخاطبين ممن كانوا على الكفر ، وقد دعاهم إلى الإسلام : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ . . . فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ .

بل حتى إن الآيـة قبلها في الماضي ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الآية : ١١] .

فقال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : بقيتم على حالكم من الكفر .

وكذلك الأمر في سياق آية المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ .

وقد كان قسم من المسلمين يشربون الخمر حتى نزول هذه الآية ، فلما نزلت قالوا : انتهينا(١) .

فقـال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : بقيتـم علـى حـالكـم المـاضيـة

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٩٥ ، فتح القدير ٢/ ٧٠ .

وأعرضتم عن أمر ربكم ، فجاء بالفعل الماضي مناسبة لما كان يقع في الماضي.

بمعنى : فإن بقيتم على ما كنتم عليه أو على ما أنتم عليه..

ويدل على ذلك أنه حيث قال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ أراد التولي في الاستقبال.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

والخطاب للمؤمنين ، ويراد به افتراض التولي في المستقبل ، قال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾.

والخطاب كما ذكرنا للمؤمنين ، فقد قال في السياق مخاطباً المؤمنين : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ويستمر في خطابه إلى أن يقول في الآية: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

والمدعو للإنفاق في سبيل الله هم المؤمنون وليسوا الكافرين ، فالتولي هو في المستقبل ، أي: التولي عما طلب منهم.

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا

تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦] .

وواضح أن الأمر يتعلق بالاستقبال ، وأن التولي افتراض لما سيكون في المستقبل ، فجاء بالفعل الذي يفيد الاستقبال وهو المضارع .

* * *

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن: ١٣].

* * *

بعد أن ذكر أن الله خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وذكر علمه بكل شيء وأنه على كل شيء قدير ، وذكر عقوبة من كفر من الأمم السابقة ، وأنه ما أصابت مصيبة إلا بإذن الله ؛ بيّن أنه لا إله الا هو .

فالذي فعل كل ذلك إنما هو الإله الحق وأنه لاإله غيره .

وأنه عليه فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمرهم إليه. وقدم الجار والمجرور (عليه) للحصر فلا يعتمد على غيره .

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وإظهار الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة التوكل أو الأمر به»[1] .

وأطلق التوكل ولم يقيده بأمر ؛ ليدل على أن التوكل عليه في جميع الأمور جليلها وحقيرها .

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٢٥ .

جاء في (روح المعاني): «وحذف متعلق التوكل ليفيد العموم ، أي: ليتوكل عليه عز شأنه في جميع أمورهم ؛ جليلها وحقيرها ، سهلها وحزنها»(١) .

إن هذه الآية في سياقها كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣] .

فقوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في هود ، نظير قوله في التغابن: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

وقوله في آية هود: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ نظير قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ١١] وقوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ .

فالذي له الملك هو الذي يرجع إليه الأمر كله .

وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ ﴾ مناسب لقوله في التغابن: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ مناسب لقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء في (تفسير ابن كثير) في قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: «فالأول خبر عن التوحيد ، ومعناه:

(١) روح المعاني ٤٣/٤ .

الطلب ، أي : وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] »(١) .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ .

* * *

إن من الأزواج من يعادين أزواجهن ويجلبن عليهم ويخاصمنهم ، ومن الأولاد من يعقون آباءهم ويخاصمونهم ويؤذونهم .

ففي مثل هذه الحالات تكون الأزواج أعداء لأزواجهن ، والأولاد أعداء لآبائهم .

وقد تكون الأزواج والأولاد ملهاة عن العمل الصالح .

وقد يحملونهم على ترك الواجبات وارتكاب المحظورات ، وذلك لحبهم لهم والشفقة عليهم ، وفي مثل هذه الحالات يكون الأولاد أعداء لآبائهم ، والأزواج أعداء لأزواجهن من هذه الناحية .

وقد ناسبت هذه الآية ما قبلها من هاتين الناحيتين .

فمن الناحية الأولى ، وهي حالات الخصومة والأذى ، ناسب ذلك ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية : ١١] فهذه مصيبة من المصائب .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٥ .

وفي الحالة الأخرى يناسب ذلك قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

فعلى المؤمنين أن يطيعوا الله والرسول، ولا يطيعوا الأزواج والأولاد.

وذلك من لطيف التناسب.

جاء في (روح المعاني): «فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن، ويخاصمنهم ويجلبن عليهم.

ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى. وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها... ومن ومن... وكذا من الأولاد...

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه فيهلك»[1] .

وجاء في (تفسير ابن كثير) أن ذلك «بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٢٦، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٩.

(وقيل) يحمل الرجل على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»[(١)].

﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أي : إن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها مما هو في حقكم أو في أمور الدنيا ومما يصح لكم أن تعفوا عنه .

وتصفحوا ، أي : تعرضوا عن ذلك بترك التثريب واللوم .

وتغفروا ، أي : تستروها بإخفائها[(٢)].

فإن الله غفور رحيم ، يغفر لعباده ذنوبهم مع أنه أولى بالطاعة ، رحيم بهم مع إساءتهم ومعصيتهم .

وأنتم إن فعلتم ذلك يغفر الله لكم ويرحمكم .

فقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ متعلق بما قبله من جهتين :

أنه إذا فعل أزواجكم وأولادكم ما يستوجب العقوبة والتثريب فاعفوا عنهم واغفروا لهم ، فإن الله غفور رحيم يغفر لعباده وإن أذنبوا وعصوا ربهم ، مع أنه أولى بالطاعة من الآباء .

وأنكم إذا فعلتم ذلك فعفوتم وغفرتم فإن الله غفور رحيم ، يغفر لكم ويرحمكم ، وأنتم أحوج إلى مغفرته ورحمته من أولئك إليكم .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٦ .

(٢) انظر : روح المعاني ٢٨/ ١٢٦ ، فتح القدير ٥/ ٢٣٢ .

﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .

* * *

أي: إن الأموال والأولاد اختبار وامتحان من الله للعبد ليعلم من يطيعه ممن يعصيه.

وقدمت الأموال على الأولاد؛ لأنها أعظم ابتلاء واختباراً، كما قال تعالى: ﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون: ٩] قدم الأموال على الأولاد؛ لأن الالتهاء بها أكثر.

جاء في (تفسير ابن كثير): «إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه»(١).

وجاء في (فتح القدير): «﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ أي: بلاء واختبار يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله فلا تطيعوهم في معصية الله»(٢).

وجاء في (روح المعاني): «أي: بلاء ومحنة؛ لأنهم يترتب عليهم الوقوع في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك.

وفي الحديث: «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته».

وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات.

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٧٦.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٣٦.

وقدمت الأموال، قيل: لأنها أعظم فتنة ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].. . وكأنه لغلبة الفتنة في الأموال والأولاد لم تذكر (من) التبعيضية كما ذكرت فيما تقدم»[١].

والحق أنها لا تحتاج إلى ذكر (من) لأن الأموال كلها والأولاد كلهم اختبار وامتحان من الله، بل إن الحياة كلها اختبار، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

لقد قال في موطن آخر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٢] فأكد ذلك بـ (إن) ولم يؤكده في آية التغابن؛ ذلك لأن الأجر في التوبة أعظم؛ لأن العمل أعظم. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

فإنه لم يذكر عملاً في التغابن، وإنما قال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ ﴾ بخلاف ما ورد في سياق آية التوبة، فقد ذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

وذكر الأجر لهؤلاء، وهو أنه يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً.

---

(١) روح المعاني ٢٨/١٢٦ وانظر: الكشاف ٣/٢٣٨-٢٣٩، البحر المحيط ٨/٢٧٩-٢٨٠.

ولا شك أن هذا الأجر أعظم ؛ لأن العمل أعظم ، فناسب التوكيد في آية التوبة دون آية التغابن .

* * *

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

* * *

فاتقوا الله في أزواجكم واتقوا الله في أولادكم واتقوا الله في أموالكم واتقوا الله في كل ما يجب اتقاؤه .

وأطلق الاتقاء ولم يقيده بشيء ؛ ليعم كل ما يجب اتقاؤه .

﴿ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

أي : على قدر استطاعتكم وطاقتكم. جاء في (روح المعاني) : «أي : ابذلوا في تقواه عز وجل جهدكم وطاقتكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال : لما نزلت : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى وعن مجاهد : المراد أن يطاع سبحانه فلا يعصى»[١] .

«﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ ما توعظون به ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها»[٢]

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٢٧ ، وانظر : ابن كثير ٤/ ٣٧٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٩ .

وفي غير ذلك من وجوه البر.

وقدم تقوى الله ؛ لأنها مدعاة إلى ما بعدها من السمع والطاعة والإنفاق.

وحيث اجتمعت التقوى والطاعة قدم التقوى. قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] .

وقال في آيات عدة: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٦] .

وقال: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣] .

وقدم السمع على الطاعة ؛ لأنه قبلها فإنه يطاع ما يسمع ، فالإنسان يسمع ثم يطيع ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [النساء: ٤٦] .

وقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] .

ولذا يقول المجيب: (سمعاً وطاعة) فيقدم السمع.

وأخر الإنفاق ؛ لأنه أثر لما قبله ، فهو أثر التقوى والسمع والطاعة.

ثم إن ماقبله أهم وأعم ، فما قبله يعم عموم المسلمين ، فالتقوى وطاعة الله ورسوله تشمل عموم المسلمين وعموم الطاعات.

أما الإنفاق فهو خاص بذوي المال ، أما من ليس عنده مال فلا يشمله هذا الأمر .

وذكر الإنفاق مناسبة لما قبله ومابعده .

فإنه قال قبل ذلك : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ ﴾ أي : اختبار وامتحان ، والإنفاق من الاختبار .

وقال بعدها : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾ .

فناسب ذكر الإنفاق .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قال (شح نفسه) لأن الشح من طبائع النفوس ، قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ ﴾ [النساء : ١٢٨] .

والشح : «بخل مع حرص»[١] «وقيل : هو أشد البخل ، وهو أبلغ في المنع من البخل .

وقيل : البخل في أفراد الأمور وآحادها ، والشح عام ، وقيل : البخل بالمال والشح بالمال والمعروف»[٢] .

قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ قيل : بكل مافيه منفعة للمؤمنين[٣] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (شح) .
(٢) تاج العروس (شح) .
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٢٠ وانظر : روح المعاني ٢١/ ١٦٤ .

فمن يوق شح نفسه وما جبلت عليه من ذلك فهو مفلح ، بل هو المفلح .

* * *

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٧] .

* * *

القرض الحسن : هو أن يكون المال حلالاً طيباً ، وأن يكون من كريم المال ، وأن يكون المقرض طيب النفس مع بشاشة وجه من دون منّ ولا تكدير[(١)] .

و«أتبع جوابي الشرط بوصفين أحدهما : عائد إلى المضاعفة ، إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران»[(٢)] .

والشكور : هو الذي «يجزي على القليل بالكثير» .

والحليم «يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات»[(٣)] .

«ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة»[(٤)] .

---

(١) انظر : (على طريق التفسير البياني)١/ ٢٥٣ ، روح المعاني ٢٧/ ٢٦٦ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٠ .
(٣) ابن كثير ٤/ ٣٧٧ .
(٤) فتح القدير ٥/ ٢٣٢ .

والشكور من صيغ المبالغة ، ويستعملها ربنا في سياق مضاعفة الأجور والزيادة من فضله. قال تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] .

وقال : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(١) .

وحيث ذكر الشكور صفة لله تعالى ذكر معها المغفرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وقال هاهنا في آية التغابن : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فذكر المغفرة إضافة إلى مضاعفة الأجور.

وهذا من المبالغة في الشكر.

* * *

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ يناسب قوله في أول السورة ﴿ يَعْلَمُ مَا

(١) انظر : من أسرار البيان القرآني ٣٣.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤].

ويناسب قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يناسب قوله في أول السورة:

﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وما بعدها من الآيات.

وقد ذكرنا اجتماع هذين الاسمين الجليلين (العزيز الحكيم) ودلالة ذلك في تفسيرنا لسورة الصف[١].

فلا نعيد الكلام في ذلك.

* * *

---

(١) انظر: كتابنا (على طريق التفسير البياني) ١/ ٢٠٣ وما بعدها.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا
بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا
تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾
وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾
يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ .

* * *

قال سبحانه في السورة التي قبلها: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ [التكوير: ٢] فذكر ما في السماء ولم يذكر ما حصل للسماء، فذكر أن الشمس كوِّرت، أي: لُفّت كما تُلف العمامة.

وقيل: إن المراد إذهاب ضوئها وإنها أظلمت.

وذكر أن النجوم انكدرت، ومن معاني الانكدار: التغير، فقيل: إن

معناها انطمس نورها ، من قولهم : ماء كدر ، أي : متغير[١] .

وأما في سورة الانفطار فقد ذكر انفطار السماء وانتثار الكواكب .

ففي سورة التكوير ذكر أن الكواكب انكدرت ، ويحتمل المعنى تساقطها ، كما يحتمل ذهاب ضوئها .

وأما في سورة الانفطار فقد ذكر انتثار الكواكب تصريحاً ، وهي مرحلة بعد ما ذكر في سورة التكوير .

ثم ذكر في سورة بعدها انشقاق السماء فقال : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١] والانفطار قبل الانشقاق .

فكان ترتيب السور بحسب توالي الأحداث الطبيعية وتسلسلها .

* * *

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ .

* * *

جاء بـ﴿ إِذَا ﴾ للدلالة على أن هذا أمر حاصل ولابد ؛ لأن ﴿ إِذَا ﴾ إنما تكون للمقطوع بحصوله أو الكثير الوقوع .

جاء في (المقتضب) : «فإذا قلت (إذا أتيتني . . .) وجب أن يكون الإتيان معلوماً .

ألا ترى إلى قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ إن هذا واقع لا محالة .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٨/ ٤٢٣ ، روح المعاني ٣٠/ ٥٠ ـ ٥١ .

ولا يجوز أن يكون في موضع هذا (إنْ) لأن الله عز وجل يعلم. و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر، وليس هذا مثل قوله: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] لأن هذا راجع إليهم»[١].

وقدمت ﴿السَّمَاءُ﴾ على الفعل ﴿انفَطَرَتْ﴾ للتهويل، فقد «يكون التقديم للتهويل كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وكقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ فإن في تقديم المسند إليه تهويلاً لاتجده في التأخير.

ألا ترى أن السماء لم يسبق لها أن انفطرت، ولا الكواكب انتثرت، ولا البحار فجرت، ولا الشمس كوّرت، فهذه الأجرام مستقرة على حالتها الدهور المتطاولة والأحقاب المتوالية، حتى ذهب بعض الناس إلى أنها على حالها منذ الأزل، وستبقى كذلك أبداً؛ ولذلك قدمها إشارة إلى الهول العظيم والحدث الجسيم الذي يصيب هذه الأجرام. ألا ترى إلى قوله تعالى مثلاً ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] كيف أخر المسند إليه؛ لأن الزلزلة معهودة مستمرة الحصول، بخلاف ما سبق.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧ ـ ٨] ولم يقل (إذا القمر خسف) لأن خسوف القمر معتاد الحصول، ونحوه بريق البصر»[٢].

* * *

---

(١) المقتضب ٢/ ٥٥-٥٦، وانظر: الطراز ٣/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٢) معاني النحو ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ .

* * *

أي: تساقطت متفرقة[١] ، وذلك بعد انفطار السماء ، وهذه مرحلة بعدها. جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ لأنه عند انتفاض تركيب السماء لابد من انتثار الكواكب على الأرض. . . (فإنه) يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب»[٢] .

ولا يلزم من انتثار الكواكب أن يكون على الأرض ، فقد يكون انتثارها في الجو.

ثم انتقل إلى ما في الأرض ، وهو تفجير البحار وبعثرة القبور فقال:

* * *

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .

* * *

«وتفجيرها من امتلائها ، فتفجر من أعلاها وتفيض على مايليها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد»[٣] .

وقيل: «﴿ فُجِّرَتْ ﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالح ،

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٦٣ .

(٢) التفسير الكبير ٣١/ ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٣٦ .

وزال البرزخ الذي بينهما ، وصارت البحار بحراً واحداً»[١] .

وجاء في (التحرير والتنوير): «وتفجير البحار: انطلاق مائها من مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين ، كما يتفجر ماء العين حين حفرها. . . وبذلك التفجير يعم الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها»[٢] وذلك من امتلائها .

وقال ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ بتشديد الجيم للكثرة والمبالغة[٣] .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال ﴿ تَفْجُرَ ﴾ بالتخفيف لأنه ذكر ينبوعاً .

وقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١٢] فقال (فجّرنا) بالتشديد ، وذلك لأنها عيون وليست ينبوعاً واحداً .

وقال : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩١] .

فقال : ﴿ فَتُفَجِّرَ ﴾ بالتشديد ؛ لأنه ذكر الأنهار .

* * *

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .

* * *

قال ههنا : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩ وانظر : تفسير الرازي ٣١/ ٧٢-٧٣ ، روح المعاني ٣٠/ ٦٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) انظر : لسان العرب (فجر) .

وقال في سورة بعدها ، وهي سورة (العاديات): ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [العاديات: ٩].

فذكر في هذه السورة بعثرة القبور ، وذكر فيما بعدها بعثرة ما فيها ، وهو من تناسب وقوع الأحداث وتسلسلها ، فالقبور تبعثر أولاً ، ثم يبعثر ما فيها فيما بعد ، ووضع التعبيران وضعاً فنياً متناسقاً ، فذكر بعثرة القبور في السورة المتقدمة ، ووضع بعثرة ما فيها في سورة بعدها ، وذلك نظير قوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ كما أسلفنا.

* * *

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

* * *

قيل: إن معنى (ماقدم وأخر) «ما أسلف من عمل خير أو شر ، وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده»[1].

وقيل: «أي: يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم فلم يقصر فيه ، وما أخر مقصراً فيه ، لأن (ماقدمت) يقتضي فعلاً ، و(ماأخر) يقتضي تركاً وتقصيراً وتوفيراً.

فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار ، وإن كان قدم العمل الصالح فمأواه الجنة»[2].

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٦٣.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/ ٧٣.

لقد قال في هذه السورة: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

وقال في سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

«فقال في سورة الانفطار: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

وقال في سورة التكوير: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ ذلك أنه قال في سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي: أحضرت وقرّبت، فناسب ذلك إحضار الأعمال، فإن الذي يطلب شيئاً عليه أن يُحضر ثمنه، ثم إن إحضار الجنة مناسب لإحضار الأعمال.

ولم يقل مثل ذلك في سورة الانفطار وإنما قال: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ فليس ثمة تقريب لشيء، وإنما ذلك يحصل قبل الحساب، فناسب أن يذكر الإنسان ماقدم وأخر، فإنه سيسأل عن ذلك كله»[1].

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

* * *

أي: ما الذي خدعك وجرأك على ربك الكريم الذي خلقك وأفاض عليك بالنعم، القادر على كل شيء، فتعصيه وتخالف أوامره؟

أهذا جزاء كرمه وإحسانه وتفضله عليك؟

أتحسب أن الكريم لايعاقب من عصاه وأعلن محاربته؟

---

(١) من أسرار البيان القرآني ١٦٨ .

أيعصي الإنسان ربه الذي أوجده وأحسن إليه وغذاه بالنعم وقام على أمره؟

أهكذا يكون جزاء المربوب للرب؟

وقد قال هاهنا: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ بذكر (الرب)، ولم يقل: (ماغرك بالله) وذلك لأن في لفظ (الرب) معنى التربية والرعاية والإحسان والسيد ومتولي أمره، فتكون الإساءة إليه بهذا المعنى أقبح وأعظم.

فإن من أساء إلى من رباه وأحسن إليه وقام على أمره كانت إساءته أبلغ وأقبح ممن أساء إلى غيره.

ثم وصفه بالكرم فقال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ولم يقل ﴿بِرَبِّكَ﴾ من دون وصف؛ لتكون الإساءة أشد، والعصيان أعظم، أفيكون الكرم مدعاة إلى الإساءة والعصيان أم إلى الطاعة؟

ثم ذكر من الصفات ما يبين حمقه وجهله وقبح معصيته.

فإنه غره ـ والله ـ حمقه وجهله وشيطانه، فقد «زين له المعاصي، وقال له: افعل ما شئت، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولاً، وهو متفضل عليك آخراً حتى ورطه»[١].

جاء في (روح المعاني): «أي: أيّ شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب مالا يليق بشأنه عز شأنه؟ وقد علمت ما بين يديك وما سيظهر من أعمالك عليك والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩.

سبحانه من صفات الجلال المانعة ملاحظتها عن الاغترار للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت، فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة... بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، دون العكس»[1].

وجاء في (الكشاف): «معناه أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه، حيث خلقه حياً لينفعه، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعد ما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب اغتراراً بالتفضل الأول»[2].

قد تقول: لقد قال هاهنا: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فذكر الرب.

وذكر الاغترار بالله في أكثر من موضع فقال: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] وقال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥].

فما سبب ذاك؟

فنقول: إن السياق مختلف، فإنه في هذه السورة إنما هو في سياق ذكر تعداد النعم عليه، فناسب ذكر الرب.

أما في آية الحديد فهي في الآخرة، والكلام موجه من المؤمنين إلى

(١) روح المعاني ٣٠/ ٦٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٩.

المنافقين ، وذكر معاصيهم واستحقاقهم النار ، قال تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

فالمقام مختلف .

وكذلك في لقمان ، فإن المقام مقام تحذير لا مقام تعداد للنعم ، فقد قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] .

وقد تقول : لقد قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ فذكر الرب .

فنقول : إن السياق في ذكر الآباء والأبناء ، وأنه لا يجزي أحدهما عن الآخر ، والأب هو مربّ لابنه وموجه له ومعلم ومرشد وقيم عليه ، فناسب ذكر الرب .

وكذلك سياق آية فاطر ، فإنها ليست في تعداد النعم ، وإنما في تذكيرهم الآخرة ، فقد قال : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ .

* * *

ذكر جملة من الصفات الدالة على كرمه سبحانه والإحسان إلى الإنسان ، والتي تدعو إلى طاعته وعدم معصيته ، وذكر بعد ذلك ما يدعو إلى عدم الاغترار بكرمه سبحانه من قدرته ، وعدم تركه عباده يفعلون ما يشاؤون من دون حساب أو جزاء .

جاء في (روح المعاني) : «صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم موحية إلى صحة ما كذب من البعث والجزاء موطئة لما بعد ، حيث نبهت على أن من قدر على ذلك بدءاً أقدر عليه إعادة»[١] .

ومعنى (سواك) : جعلك سالم الأعضاء .

و(عدلك) : صيرك معتدلاً متناسب الخلق ، أو خلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق[٢] ، أو صرفك عن خلقة غير ملائمة[٣] .

وبدأ بالخلق فالتسوية فالعدل ؛ لأن هذا هو الترتيب الطبيعي .

ولذا حيث ذكر الخلق والتسوية بدأ بالخلق ، وذلك في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة : ٣٨] .

وقال : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١ ـ ٢] .

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٦٤ .

(٢) انظر : الكشاف ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

(٣) انظر : روح المعاني ٣٠/ ٦٤ .

وقال: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧].

وقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩].

وقال: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

جاء في (التحرير والتنوير): «وفرع فعل (سواك) على (خلقك) وفعل (عدلك) على (سواك) تفريعاً في الذكر؛ نظراً إلى كون معانيها مترتبة في اعتبار المعتبر وإن كان جميعاً حاصلاً في وقت واحد، إذ هي أطوار التكوين من حين كونه مضغة إلى تمام خلقه، فكان للفاء في عطفها أحسن وقت، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾»(١).

* * *

﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

* * *

(ما) تحتمل أن تكون مزيدة للإبهام نحو: (أعطيته شيئاً ما) و (لأمر ما جدع قصير أنفه).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٦ - دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

والمعنى: في أي صورة شاءها ربنا ركبك، من: حسن وقبح، وطول وقصر، أو غير ذلك.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ متعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ أي: ركبك في أي صورة شاءها ربنا.

وجملة ﴿شَآءَ﴾ صفة، والعائد محذوف.

جاء في (الكشاف): «﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا شَآءَ﴾ مزيدة، أي: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح، والطول والقصر، والذكورة والأنوثة، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه»[1].

ويجوز أن تجعل (أي) شرطية[2] نحو قولك: (في أي كتاب تقرأ أقرأ) و(إلى أي بلد تذهب أذهب)

كما يجوز أن تجعل (ما) في معنى الشرط والجزاء[3]، كقولنا: (ما قال فعل في كل أمر) و(ما يسمع يحفظ من كل شعر).

كما يحتمل أن تكون موصولة[4].

والتقدير في الآية على هذا: (ما شاء ركبك في أي صورة).

و(ما) شرطية أو موصولة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٧، روح المعاني ٣٠/ ٦٤.

(٢) انظر: روح المعاني ٣٠/ ٦٤.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٣١/ ٧٦.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٧.

و﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ ﴾ على معنى الحال ، أي: ركبك كائناً في أي صورة ، أو حاصلاً في أي صورة. جاء في (البحر المحيط): «وقيل: يتعلق بمحذوف ، أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور»(١) .

* * *

﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾

* * *

أي: ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله «وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصي ، مع كونه موجباً للشكر والطاعة»(٢) .

والدين يحتمل معنى الجزاء ، أي: تكذبون بالجزاء ، ويحتمل أن يكون المعنى التكذيب بدين الإسلام. جاء في (الكشاف): «وهو الجزاء أو دين الإسلام ، فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً ، وهو شر من الطمع المنكر»(٣) .

وهم يكذبون بهما جميعاً.

وقد يذكر التكذيب بيوم الدين ، فيذكر اليوم إذا كان السياق في ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

فذكر التكذيب بيوم الدين ؛ ذلك لأن السياق في ذكر اليوم ، فقد قال

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٧ .
(٢) روح المعاني ٣٠/ ٦٥ وانظر: الكشاف ٣/ ٣٢٠ .
(٣) الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

سبحانه في سياق هذه الآيات: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فذكر اليوم العظيم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فناسب ذكر التكذيب بيوم الدين .

* * *

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

* * *

يعني: أنكم تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافظين مراقبين يكتبون ماتفعلونه استعداداً ليوم الجزاء ؛ ليحاسبكم ربكم على أعمالكم ويجزيكم بها .

ووصفهم بالكرام تعظيم لهم وللمهمة التي أسندت إليهم ، فإذا كانت المهمة عظيمة اسندت إلى عظيم كبير ، وذلك تعظيم ليوم الدين الذي سيكون الجزاء على ما يقدمه هؤلاء الحفظة الكتبة الكرام .

ومن جهة أخرى أن وصف الحافظين بالكرام مناسب لوصفه سبحانه ذاته العلية بقوله: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فربنا الكريم جعل علينا حفظة كراماً ، وهو تناسب لطيف. جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾: «تحقيق لما يكذبون به من الجزاء ، يعني: أنكم تكذبون بالجزاء ، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم ليجازوا بها .

وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء ، وأنه عند الله من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكّل بضبط ما يحاسب عليه ، ويجازى

به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «قال: ﴿ يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: (يكتبون) دل على أنه لايكتب الجميع، فيخرج عنه السهو والخطأ وما لاتبعة فيه»[٢].

وجاء في (التحرير والتنوير): «وابتدئ منها بوصف الحفظ؛ لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين»[٣].

وجاء هنا بجمع المذكر السالم فقال: ﴿ لَحَـٰفِظِينَ ﴾ وقال في موطن آخر: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١] بجمع الكثرة، ذلك أنه زاد على وصف الحفظة في آية الانفطار، فذكر أنهم كرام كاتبون يعلمون ما تفعلون.

ولاشك أن هذا أقل من الإطلاق، فكلما ذكر وصف قيد الموصوف فقلّ العدد، فناسب جمع القلة هنا، بخلاف قوله: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ فإنه لم يقيدهم بشيء فناسب جمع الكثرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الملائكة الكاتبين إنما هم ملكان لكل شخص.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٩- المجلد ١٢.

أما الحفظة فغير محدودين بعدد ؛ إذ ربما كانوا أكثر من ذلك ، يدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] فذكر أن له معقبات يحفظونه ، وهذا جمع ، فناسب الكثرة من جهة أخرى ، والله أعلم .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ .

* * *

ذكر عاقبة ما يكتبه الكرام الكاتبون وما يترتب عليه من الجزاء ، فليس الغرض مما يكتبه الكرام الكاتبون مجرد العلم الذي لايفضي إلى غرض أو نتيجة ، وإنما هو لغرض الجزاء .

فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بربه الكريم ويقول: هو أكرمني في الدنيا وسيكرمني في الآخرة ويتجاوز عني ويغفر لي ما أعمل .

فما ذكره من النعيم والجحيم ؛ إنما هما عاقبة ما تكتبه الملائكة الكرام الحفظة .

ثم إن ذكر ذلك مناسب لمبتدأ السورة وخاتمتها ، فإن ذلك إنما يكون في اليوم الآخر الذي ذكر طرفاً من أحداثه في أول السورة بقوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ . . . ﴾ .

ومناسب لما ورد بعد ذلك ، وهو قوله: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ . ﴾ إلى آخر السورة .

* * *

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

* * *

وهو اليوم الذي كانوا يكذبون به ، والذي ذكره بقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ .

* * *

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ .

* * *

أي: لا يخرجون منها ، وقدم الجار والمجرور للقصر إضافة إلى الفاصلة ، فإنهم غائبون عن غيرها من النعيم ، أما هي فلا يغيبون عنها.

وقيل: إن التعبير يحتمل الإشارة إلى عذاب القبر ، فإنهم يدخلونها يوم الدين ، وماهم بغائبين عنها قبل ذلك في البرزخ.

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ : «كقوله: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾. ويجوز أن يراد: يصلون النار يوم الدين ومايغيبون عنها قبل ذلك ، يعني: في قبورهم»[١].

وفي (البحر المحيط): «وقيل: إنهم مشاهدوها في البرزخ»[٢].

* * *

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ .

* * *

لما ذكر يوم الدين قبل هذه الآية فقال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ قال ههنا:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣٧.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ تعظيماً وتهويلاً لهذا اليوم الذي لا يدرى كنهه «يعني: أن أمر يوم الدين، بحيث لا تدرك له دراية دارٍ كنهه في الهول والشدة، وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه»[١].

ثم كرر السؤال زيادة في التهويل والتعظيم والتوكيد «والتكرار لزيادة التهويل»[٢].

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾:

«تكرير للتهويل تكريراً يؤذن بزيادته، أي: تجاوز حد الوصف والتعبير، فهو من التوكيد اللفظي. وقرن هذا بحرف (ثم) الذي شأنه إذا عطف جملة على أخرى أن يفيد التراخي الرتبي...

وهي في هذا المقام رتبة العظمة والتهويل، فالتراخي فيها هو الزيادة»[٣].

وقيل: إن «كل ما في القرآن من قوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ فقد أدراه، وكل ما فيه من قوله عز وجل: ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ فقد طوى عنه»[٤].

* * *

﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾.

* * *

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٨٤.
(٤) روح المعاني ٣٠/ ٦٦.

«أي: لا يستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه، ولا أمر إلا لله وحده»(١).

جاء في (روح المعاني): «وفي تحقيق قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ لدلالته على أن الكل مسوسون مطيعون مشتغلون بحال أنفسهم مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية»(٢).

و(الأمر) يحتمل واحد الأوامر، أي: لا يأمر فيه إلا الله، فهو الملك المطاع، ويحتمل واحد الأمور، أي: الشأن كله لله(٣).

والتحقيق أنهما كليهما لله سبحانه: الأوامر والشأن.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ فأخر الجار والمجرور (لله).

وفي أكثر من موطن قدم الجار والمجرور على الأمر، وذلك نحو قوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١].

وقوله: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤].

فنقول: إن كل ما قدم الجار والمجرور ﴿ لِلَّهِ ﴾ إنما هو مطلق غير مقيد بزمن، فالأمر لله وحده على الإطلاق.

أما في آية الانفطار فقد قال: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ فقيده بذلك اليوم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٦٧.

(٣) انظر: روح المعاني ٣٠/ ٦٧، التحرير والتنوير ٣٠/ ١٨٥.

فقال ﴿ يَوۡمَئِذٍ ﴾ فلو قدم ﴿ لِّلَّهِ ﴾ وقال: (لله الأمر يومئذ) لكان المعنى أن له الأمر حصراً في ذلك اليوم ، ومقتضى هذا أنه في غير ذلك اليوم قد يكون الأمر لذات أخرى ؛ ولذا قال: ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ فلم يخصصه بذلك اليوم ، وإنما جعل الأمر له في ذلك اليوم.

أما الأمر على الإطلاق فهو له حصراً في ذلك اليوم وغيره ، وعلى كل حال ، كما ذكره في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

فاتضح الفرق.



تفسير سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ
حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

* * *

سُبقت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩] .

ومناسبة هذه السورة لقوله هذا مناسبة ظاهرة.

فإن هذه الليلة هي ليلة السجود والاقتراب من الله ، فمناسبتها لما قبلها ظاهرة.

كما أن مناسبتها لأول السورة التي قبلها ظاهرة أيضاً ، فقد قال في مفتتح السورة التي قبلها: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ «فكأنه قال: اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا»[1] .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٦ .

لقد ذكر في هذه السورة ضمير المنزِل ، وذكر ضمير المنزَل ، وذلك في قوله ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ .

فـ (نا) ضمير المنزِل ، وهو الله .

و(الهاء) ضمير المنزَل ، وهو القرآن .

وقد ذكر في السورة التي بعدها ، وهي سورة البينة ، المنزَل عليه ، وبيّن ضمير المنزِل وضمير المنزَل ، فقال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

فقوله: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ هو المنزَل عليه .

وقوله ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بين ضمير المنزِل الذي ذكره في قوله: ﴿ إِنَّآ ﴾ و(أنزلنا) .

وقوله: ﴿ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ بين الضمير الذي هو الهاء في ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ .

فبين في هاتين السورتين: المنزِل والمنزَل عليه ضميراً وإيضاحاً .

فمناسبتها لما بعدها ظاهرة أيضاً .

إن هذه السورة خمس آيات بعدد الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر .

وهن: الليلة الحادية والعشرون ، والثالثة والعشرون ، والخامسة والعشرون ، والسابعة والعشرون ، والتاسعة والعشرون .

وهي مناسبة لطيفة .

وقالوا: وقوله: ﴿ لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ «تسعة أحرف ، وهو مذكور ثلاث

مرات فتكون السابعة والعشرين»[١].

ونقل عن ابن عباس أن لفظة (هي) «إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر ؛ إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة. انتهى. ولايصح مثل هذا عن ابن عباس ، وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى»[٢].

ومثل هذا الاستدلال لا يعتد به ، وإنما يعتد بالنصوص الصحيحة الصريحة عن رسول الله ﷺ.

لقد عظم ربنا هذه الليلة تعظيماً كبيراً:

فقد قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ فذكر ضمير التعظيم في ﴿ إِنَّآ ﴾ مؤكداً بـ (إن) ، وذكره في ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ .

ومن عادات القرآن أنه إذا ذكر التعظيم فلابد أن يسبقه أو يذكر بعده ما يدل على الواحد ؛ لئلا تكون في الذهن شائبة شرك ، وليعلم أن هذا ضمير التعظيم.

وقد ذكر ذلك في قوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ وهو واحد ، فدل على أن هذا ضمير التعظيم.

ومما يدل على التعظيم أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يعني: القرآن. وقد ذكر الضمير ؛ لأن المقصود معلوم وإن لم يجر له ذكر دلالة على جلالة قدره ، وأنه معلوم وإن لم يذكر صراحة ؛ نظير قوله تعالى: ﴿ مَا

---

(١) تفسير الرازي ١١/ ٢٣٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.

تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥] : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١] فالمقصود معلوم ، وهو أن الضمير يعود على الأرض.

وإنه سماها ليلة القدر. ومن معاني ﴿ ٱلْقَدْرِ ﴾ الشرف والمكانة ، كما تقول: هو جليل القدر ، فلم يقل: (هي ليلة عظيمة القدر ، أو عظيمة المكانة) وإنما هي ليلة القدر ، أي: هي ليلة الشرف ، وهو تعظيم كبير.

جاء في (الكشاف): «عظم القرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أسند إنزاله إليه ، وجعله مختصاً به دون غيره.

والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه.

والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه»(١).

وجاء في (روح المعاني): «وفي التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيم له ، أي: تعظيم لما أنه يشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد ، فهو في قوة المذكور.

وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين وتأكيد الجملة»(٢).

ومن معاني القدر: التقديرات التي يقدرها ربنا سبحانه.

وهي كذلك ، فقد قال ربنا فيها: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥١.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٨٩.

جاء في (الكشاف): «ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها، من قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾.

وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها، وتدفع إلى الملائكة لتتمثله...

(وقيل) معناه: ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن، من قولك: رجل له قدر»[(٢)].

فهي ليلة الشرف وليلة التقديرات التي يقدرها ربنا.

* * *

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾.

* * *

هذا التعبير يراد به التفخيم والتعظيم، وذلك نحو قوله: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أي: أيّ شيء هو من العظم «يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها.

ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر»[(٣)].

جاء في (روح المعاني): وذلك «لما فيه من الدلالة على أن علوها

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٥١.

خارج من دائرة دراية الخلق ، لا يعلم ذلك ولا يعلم به إلا علام الغيوب»[١] .

وقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ بإظهار اسمها ، ولم يقل: (وما أدراك ما هي) وذلك للزيادة في تعظيمها ، وذلك أن الإظهار آكد من الإضمار كما هو معلوم.

قال تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ [القارعة: ٩ ـ ١٠].

وقال: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٥] .

فأضمر في آية القارعة فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ ولم يقل: (وما أدراك ما الهاوية).

وأظهر في آية الهمزة فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ للدلالة على ما ذكر من تعظيم النار وشدة وصفها في الهمزة فقال: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ .

ولم يزد في القارعة على قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ .

* * *

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

* * *

بين فضلها فذكر أنها خير من ألف شهر ، أي: أفضل من أكثر من ثلاثة وثمانين عاماً.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٨٩.

وقد بين ليلة القدر بعد أن قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ بالفعل الماضي ، قيل: «ما كان في القرآن ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد أعلمه.

وما قال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه لم يعلمه»(١) .

وأظهر ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ في الجواب.

فكرر ذكرها في السؤال والجواب ، فقد قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، ثم قال: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾. ولم يقل: (هي خير من ألف شهر).

وهذا تعظيم آخر ، فإنه لم يرد في القرآن نحو هذا التعبير ، فإنه إذا سأل فقال: (وما أدراك ماكذا) فإنه لا يذكر الجواب بإعادة اللفظة ، وإنما يجيب مضمراً ما سأل عنه ، وذلك نحو قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ .

ولم يقل: (الحطمة نار الله الموقدة).

ونحو قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ ، ولم يقل: (الطارق النجم الثاقب).

وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ ولم يقل: (القارعة يوم يكون الناس).

فبإعادة ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ في الجواب تعظيم آخر.

جاء في (روح المعاني): «وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من

---

(١) البحر المحيط ١٩٦/٨ ، روح المعاني ١٨٩/٣٠ .

تأكيد التعظيم والتفخيم ما لا يخفى»(١).

والتعظيم الآخر قوله: إنها خير من ألف شهر.

* * *

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾.

* * *

قال: ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ ولم يقل: (تتنزل) فحذف إحدى التاءين؛ لأن هذا التنزل إنما هو في ليلة واحدة في السنة، فاقتطع من الفعل للدلالة على قلة الحدث، بخلاف قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

فإنه قال: (تتنزل) بتاءين، وذلك لأن هذا التنزل مستمر على مدار العام، في كل ساعة، بل في كل لحظة.

فلما زاد التنزل زاد في البناء(٢).

﴿ وَٱلرُّوحُ ﴾ قيل: جبريل. وقيل: خلق من خلق الله.

وقال: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ قيل: أي: بأمر ربهم عز وجل، وقيل: إن ذلك إشارة إلى أنهم يستأذنون ربهم ليأذن لهم بالتنزل، فقد قيل إنهم:

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٨٩.

(٢) انظر: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ١٢ ـ ١٣.

«يرغبون في أهل الأرض من المؤمنين ويشتاقون إليهم فيستأذنون فيؤذن لهم»[(١)].

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

قيل: هي تتنزل من أجل كل أمر «تعلق به التقدير في تلك السنة إلى قابل، وأظهره سبحانه وتعالى لهم، فـ ﴿ مِّن ﴾ بمعنى اللام التعليلية متعلقة بـ ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ . . .

[وقيل]: إن ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ وهو مصدر بمعنى السلامة»[(٢)].

﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ .

قيل: السلام هنا بمعنى: التحية، أي: تسلم الملائكة على المؤمنين، فلا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة[(٣)].

وقيل: السلام: هو السلامة «أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين»[(٤)].

و﴿ سَلَٰمٌ ﴾ خبر مقدم، و﴿ هِىَ ﴾ مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر للقصر،

---

(١) روح المعاني ١٩٦/٣٠.
(٢) روح المعاني ١٩٦/٣٠ ـ ١٩٧.
(٣) الكشاف ٣٥١/٣، البحر المحيط ٤٩٧/٨.
(٤) الكشاف ٣٥١/٣.

أي: ما هي إلا سلام، والإخبار بالمصدر عنها للمبالغة[١].

وقيل: إن تقدير الكلام: هي سلام من كل أمر، أي: هي سلام من كل أمر مخوف، وقوله (من كل أمر) متعلق بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾[٢].

وقيل: التقدير: (هي حتى مطلع الفجر) والوقوف عند كلمة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾.

فاحتمل التعبير على هذا:

١ - ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ ﴾.

فتم الكلام عند قوله ﴿ سَلَٰمٌ ﴾، واستأنف الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

٢ - ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾. وابتدأ الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

٣ - ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾.

وتم الكلام عند قوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾، وابتدأ الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: هي سلام من كل أمر حتى مطلع الفجر.

والمعاني كلها مرادة ومحتملة.

* * *

---

(١) انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٩٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.

﴿ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ .

* * *

قال: ﴿ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ ولم يقل: (حتى آخرها) لئلا يبقى جزء من الليل لا يشمله السلام.

فعم ذلك الليلة كلها إلى مطلع الفجر.

وقال: ﴿ مَطۡلَعِ ﴾ ولم يقل: (طلوع) ليشمل ذلك المصدر واسم الزمان فيكون المعنى: سلام هي حتى طلوع الفجر ووقت طلوعه. وقيل: موضع طلوعه أيضاً. جاء في (نظم الدرر): «ولا يزال ذلك السلام والبركة (حتى) أي: إلى مطلع الفجر، أي: طلوعه ووقت طلوعه وموضع طلوعه. لايكون فيها شر كما في غير ليلتها... وذلك سر قراءة الكسائي بالكسر، والله أعلم[1].

واختير التعبير بـ (حتى) دون (إلى) ليفهم أن لما بعدها حكم ما قبلها فيكون المطلع في حكم الليلة»[2].

* * *

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ٢/ ٤٠٣.

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٩٢ـ٤٩٣.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

* * *

وقعت سورة العصر بين خسرين :

الخسر الأول : ما ذكره في سورة التكاثر قبلها ، فإن الذي ألهاه التكاثر حتى زار المقابر إنما هو في خسر .

والخسر الآخر : ما ذكره في سورة الهمزة بعدها ، فإن الهمزة الذي جمع مالاً وعدده إنما هو في خسر .

والخسر الأول الذي ذكره في سورة التكاثر هو رؤية الجحيم ، وذلك قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ .

والخسر الذي ذكره في سورة الهمزة إنما هو نبذه في الحطمة ، وذلك قوله : ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ .

ثم إن هذا هو الترتيب الطبيعي بحسب السبق :

فإن رؤية الجحيم قبل الدخول فيه.

ومن الطريف أيضاً ورود سورة التكاثر بعدما يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش.

فإن ذلك قبل رؤية الجحيم.

جاء في (روح المعاني) أن «فيها إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر؛ ولذا وضعت بعد سورته»(١).

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾.

أقسم ربنا بالعصر، ومما قيل في العصر أنه الدهر، والدهر خير شاهد على ما أقسم عليه من أن الإنسان في خسر، إلا من استثناهم ربنا. جاء في (تفسير ابن كثير): «العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر»(٢).

وقيل: إن المقصود بالعصر صلاة العصر، وقيل: هو زمان حياته صلى الله عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة، ومقداره بالنسبة إلى ما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار.

وفي الحديث: إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس(٣).

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٢٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٧.
(٣) انظر: روح المعاني ٣٠/ ٢٢٧.

وقيل: إن العصر «عصر الدنيا قد دنت القيامة وأنت بعد لم تستعد»[١].

وقد أقسم ربنا ـ هنا ـ بالعصر دون غيره من الأوقات كالفجر أو المغرب أو الضحى أو غير ذلك من الأوقات ، ذلك لأن ما أقسم عليه من الخسر ينبغي أن يكون قد مرت مرحلة كافية تدل على الاستشهاد بها عليه ، والعصر هو أدل الأوقات على ما أقسم عليه. فإن مقداره في الدنيا بالنسبة إلى ما مضى من الزمان ، مقدار وقت العصر من النهار.

وإن ما مر من الزمان قد استوفى جميع الأمم قبل الرسول الخاتم وجميع الرسالات ، وفيها عبرة كافية ودلالة بينة على ما أقسم عليه.

أما غيره من الأوقات فليس فيها ما يدل على ما أقسم عليه كدلالة العصر.

فالفجر هو أول النهار والإنسان لم يعمل بعد ليتبين خسره أو عدمه.

والضحى نحو ذلك ، فإنه لم تمر عليه مرحلة كافية للاستدلال.

أما المغرب فهو وقت غروب الدنيا فلا فائدة من الاستدلال ؛ إذ الحياة قد انقضت وليس ذلك وقت اعتبار.

ومن الملاحظ أنه إذا ذكر الأمم بعد القسم بالأوقات ناسب بين السبق في الوقت وذكر الأمم.

فإنه لما أقسم بالفجر ذكر عاداً فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ٢٧٨.

وهي من أوائل الأقوام ، وهم بعد نوح .

ولما أقسم بالشمس وضحاها ذكر ثمود فقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ وهي بعد عاد .

فناسب بين ذكر القوم وما أقسم به .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

أي : إن الإنسان ساقط في الخسر ، يحيط به من كل جانب ، إلا من استثناهم ربنا .

وقال (في خسر) ولم يقل (خاسر) للدلالة على عظم الخسارة التي تحيط به .

جاء في (تفسير الرازي) : «واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر .

أحدها : قوله : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران ، وأنه أحاط به من كل جانب . وثانيها : كلمة (إن) ، وثالثها : حرف اللام»[١] .

وقد نكر (الخسر) ولم يعرفه ؛ ذلك لإطلاق الخسر ، فقد يكون كبيراً أو صغيراً ، عظيماً أو قليلاً ؛ بحسب عمله وتواصيه بالحق والصبر .

لقد ورد في القرآن الكريم لفظ : (الخسر) و(الخسار) و(الخسران) وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) دلالة كل منها في الاستعمال القرآني .

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ٢٨٠ .

وقد ذكرنا أن القرآن استعمل (الخسر) لعموم الخسارة، سواء كانت قليلة أم كثيرة.

واستعمل (الخسار) للزيادة في الخسارة، كقوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

واستعمل (الخسران) لأكبر الخسران وأعظمه، ولم يستعمله للخسارة القليلة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1] [الزمر: ١٥].

* * *

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

* * *

قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ «بيان لتكميلهم لأنفسهم، وقوله ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم، أي: وصى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره، وهو الخير كله في الدنيا والآخرة»[2].

وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ «دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي»[3].

---

(١) من أسرار البيان القرآن ١٢ ـ ١٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٥.

(٣) تفسير الرازي ٨/ ٢٨٢.

وذكر التواصي بالصبر بعد التواصي بالحق ؛ لأن التواصي بالحق والدعوة إليه تثقل على النفس وعلى الآخرين ، وقد يتعرض المتواصي بالحق إلى الأذى ، فذكر التواصي بالصبر .

وكرر فعل التواصي وحرف الجر في كل منهما للتأكيد عليه.

فقد كان يمكن أن يقول: (وتواصوا بالحق والصبر) أو: (وتواصوا بالحق وبالصبر) وهو آكد لتكرار حرف الجر ، لكنه قال: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر ، وهو في غاية الاهتمام والتأكيد .

والتواصي بالصبر عام .

فقد يكون صبراً عن المعاصي .

وصبراً على الطاعات ومشاقّها .

وعلى ما يبتلي الله به عباده من المصائب .

والصبر على آثار الدعوة إلى الله والتواصي بالحق .

جاء في (الكشاف): «﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو الله به عباده»[١] .

وجاء في (روح المعاني): «وتواصوا بالصبر عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية .

وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها .

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥٧ .

وعلى ما يبتلي الله تعالى به عباده من المصائب.

والصبر المذكور داخل في الحق، وذكر بعده مع إعادة الجار والفعل المتعلق هو به؛ لإبراز كمال العناية به»[١].

قد تقول: لم يذكر ربنا التواصي بالحق والصبر في مواطن أخرى واكتفى بالإيمان والعمل الصالح، فقال ربنا في سورة التين: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن آية العصر في بيان الخسر الذي يصيب الإنسان.

وسورة التين فيما ينجي من دركات النار، فبين أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد إلى أسفل سافلين، ولكن لا يمنعه من الخسر الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر.

فإن من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله.

* * *

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٢٩ وانظر: تفسير أبي السعود ٧/ ٥٥.

أسئلة بيانية

١ ـ قال تعالى في سورة البقرة [٢٢٨]: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ .

وقال في سورة البقرة [٢٣٢]: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

سؤال:

لماذا قال في الآية ٢٢٨ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ .

وقال في الآية ٢٣٢ : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ .

فاستعمل البعولة في الآية الأولى ، واستعمل الأزواج في الآية الأخرى؟

الجواب:

البعل: هو رب الشيء ومالكه ، ومنه: بعل الدار [١]، وسمي زوج المرأة بعلاً ؛ لأنه سيدها والقائم على أمرها ، وفيه معنى الاستعلاء.

---

(١) تاج العروس (بعل) ، المخصص لابن سيده ١/ ٣٠٤.

فقال في الآية ٢٢٨ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ فجعل الأمر بيدهم ، وجعل الحق لهم إن أرادوا ذلك ، فاستعمل كلمة (البعولة) .

وأما في الآية الأخرى فإنه لم يجعل الأمر بيد الأزواج ، وإنما جعل الأمر بيد ولي المرأة فقال : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ والخطاب إنما هو لأولياء الأمور .

فلما لم يجعل الأمر بيد الزوج لم يستعمل (البعولة) ؛ لأنه ليس بيده الأمر ، ولما جعل الأمر بيد الأزواج استعمل البعولة ؛ لأن فيه معنى الاستعلاء .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء : ١٢٨] .

فإنه لما كان هو المستعلي بنشوزه وإعراضه استعمل البعولة .

فاتضح ما قلناه .

٢ ـ قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ .

فقال : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ .

وقال في سورة مريم : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم : ٦١] .

فقال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ .

وقال في سورة الزمر: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

فقال: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

وقال في سورة الأحقاف: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦].

فقال: ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ﴾.

سؤال:

قال سبحانه في موضع: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ ﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾.

وقال في موضع ثالث: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

وقال في موضع رابع: ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ﴾.

فلم الاختلاف في التعقيب على الموعد؟

الجواب:

إن كل تعبير مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية:

١ ـ فقد ذكر قبل آية النساء ما يعد الشيطان أولياءه من الغرور والخداع والإطماع بالباطل فقال: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾.

ثم ذكر بعدها ما يعد الله المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان ، فذكر أن وعد الله حق ، وليس كما يعد الشيطان أولياءه من الغرور والخداع والإطماع بالباطل ، فإن معنى (غره) خدعه وأطمعه بالباطل(١) .

فوعد الله حق ، ووعد الشيطان غرور .

٢ ـ وأما آية مريم ، فقد قال فيها : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ ذلك أنه ذكر وعد الرحمن عباده بالغيب فقال : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم: ٦١] .

والغيب مجهول يرتاب به الكافرون ، أيأتي أم لا؟

فقال : إنه مأتي يأتيكم وتأتونه .

٣ ـ وقال في آية الزمر : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

ذلك أنه ذكر خلف الإنسان لوعده في قوله سبحانه : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨] .

فقد وعد الإنسان ربه بالإنابة إليه عند مسه بالضر ، فلما كشف عنه ضره وخوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه وأخلف وعده .

---

(١) انظر : القاموس المحيط (غرر) ، لسان العرب (غرر) .

فقال في الآية العشرين: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

فقال: إن الله لا يخلف وعده تعريضاً بما وعد الإنسان ربه فأخلف.

وهذا من لطيف المناسبة.

٤ ـ وأما قوله سبحانه في الأحقاف: ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

فهو مناسب لسياقه أيضاً.

فإن الآية وردت في الصالحين من الأبناء، فقال سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦].

فقال: إن ذلك وعد الصدق.

وورد بعدها ذكر الأبناء الكافرين المكذبين بيوم الدين، فقال فيهم: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٧].

فهؤلاء مكذبون بما كان يعدهم آباؤهم بالبعث ويقولون: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

فهؤلاء يقولون: إن هذا الوعد كذب، وما هو إلا أساطير الأولين.

فقال ربنا سبحانه: إن هذا الوعد وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

٣ ـ ورد في القرآن الكريم في الجزاء عن الأعمال أنه سبحانه قال مرة: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] .

وقال مرة أخرى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩ ، ٧٧] ، [الإسراء: ٧١] .

وقال في موضع آخر: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٦٠] .

فما الفرق؟ ولم ذاك؟

الجواب:

إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه ، وإليك إيضاح ذلك :

أ ـ قال تعالى في سورة النساء ١٢٤ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

فقال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ذلك أن الآية ـ كما هو واضح ـ في المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

والمعنى: أنه لا ينقص من أجورهم مقدار ما يملأ النقير ، والنقير: نقرة في أعلى النواة ، فإن هؤلاء يعملون الصالحات ، فلا يذهب من هذه الأعمال الصالحة ما يملأ النقير .

وإذا ملئ منها النقير فقد ذهب من أعمالهم مقدار ذلك ، فذكر أنهم لا يظلمون نقيراً ، أي: لا ينقص من أعمالهم ما يملأ النقير ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣] .

أي: لا يؤتون الناس من الأموال ما يملأ النقير؛ خشية أن تنقص أموالهم مقدار ذلك.

فما يملأ النقير إنما هو ما يؤخذ من الأعمال أو الأموال فتنقص.

ب ـ وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٤٩ ـ ٥٠].

فقال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

والآية في المشركين والكافرين، وقبلها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾.

أي: لا يزاد على ذنوبهم مقدار فتيل.

والفتيل: هو الخيط في شق النواة.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

وهي نحو الآية الأولى.

قد تقول: لكنه قال في سورة الإسراء: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

فقال فيمن أوتي كتابه بيمينه: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

فما الفرق؟

والجواب: أن هذه الآية عامة ، فقد قال: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ .

وهذه عامة في الكافرين والمؤمنين ، وعدم الظلم واقع على الجميع ، فلا يزيد في جزاء الكافر مقدار فتيل .

ولا ينقص من حسنات المؤمن مقدار فتيل .

ج ـ وقال في سورة مريم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٥٩ ـ ٦٠] .

فذكر في هذه الآية التوبة والإيمان والعمل الصالح ، وهذا أعم من مجرد العمل ، فذكر أنهم لا يظلمون شيئاً .

و(الشيء) أعم من النقير والفتيل .

فلما ذكر ما هو أعم وأشمل من العمل ، وهو: التوبة والإيمان والعمل ، ذكر الأعم والأشمل ، وهو (الشيء) فقال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

٤ ـ قال سبحانه في سورة الأنعام: .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] .

وقال في سورة محمد:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ .

فقال في الآيتين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ ﴾ بإفراد الفعل (يستمع) .

وقال في يونس :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ فجاء بواو الجماعة .

فما السبب؟

الجواب:

المستمعون في آيتي الأنعام ومحمد أقل ممن هم في يونس ؛ ذلك أنه ذكر في آية الأنعام أنهم إذا جاؤوه يجادلونه ، فهم مجموعة ليست بالكثيرة ، وهم الذين يجيئون يجادلونه .

وذكر في آية محمد أنهم إذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً؟ .

فهم كانوا عنده وخرجوا .

وهي نظيرة آية الأنعام ، فالأولى فيمن جاءه ، والأخرى فيمن خرج من عنده .

أما آية يونس فقد أطلق المستمعين فيها ، فهي ليست مختصة بمن جاءه أو خرج من عنده ، وإنما قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ وهي عامة .

فجاء بواو الجماعة التي هي أكثر فقال : ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ .

٥ ـ قال سبحانه في سورة الحجر في قصة لوط:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾.

سؤال:

لماذا قال أولاً: ﴿ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

باستعمال الفعل (جاء)، وقال بعدها: ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

فاستعمل الفعل (أتى) مع أن الفعلين مترادفان؟

الجواب:

قيل: إن ذلك قد يكون من باب التوكيد بالمرادف، كقوله تعالى: ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ وقوله: ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

وقيل: إن ذلك للتفنن لدفع التكرار. جاء في (التحرير والتنوير): «فإعادة فعل «أتيناك» بعد واو العطف، مع أن فعل «أتيناك» مرادف لفعل (جئناك) دون أن يقول: «وبالحق»، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف، والتعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء، وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنن، لدفع تكرار الفعل الواحد»[١].

والذي يبدو أن الاختلاف في التعبير بين الفعلين إنما هو لغرض لطيف، فإن الإتيان يستعمله القرآن للمجيء بسهولة، وأن المجيء قد

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٦٣.

يستعمله لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى)[(١)] .

فاستعمل (أتيناك) لما هو أيسر مما جاء في قوله (جئناك) ، ذلك أنه قال: ﴿ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وهو العذاب الذي كانوا يشكون في صحته ، ويجادلون فيه ، كما أخبر عنهم ربنا سبحانه في موطن آخر فقال فيهم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] .

وأما المجيء الثاني فإنما هو مجيء بنجاته ونجاة أهله كما قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ .

فالمجيء الأول بعذاب قومه .

والمجيء الآخر بنجاته ونجاة أهله .

ولاشك أن مجيء العذاب أعسر من المجيء بالنجاة فخالف بينهما ، إضافة إلى ما ذكر من التوكيد ، والله أعلم .

٦ ـ قال تعالى في سورة الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

وقال في سورة طه :

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ٦ ، ١٠٢ ، لمسات بيانية ٩٧ وما بعدها ، من أسرار البيان القرآني ٤٠ وما بعدها .

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ .

سؤال:

قال في آية الكهف: ﴿ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ ﴾ فقدم الظرف ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ على الأمر.

وقال في سورة طه: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ فقدم الأمر على الظرف.

فلم ذاك؟

الجواب:

إن الأمر في آية طه إنما هو في أمر موسى وفرعون ، والأمر هو مغالبة موسى ، وقد تناظروا وتشاوروا للنظر في ذلك ، فقد جمع فرعون كيده للنظر في هذا الأمر المهم ، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، وقال على لسان فرعون: ﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

وهذا الأمر مهم ؛ ولذا قال: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ أي: بالغوا في إخفاء تناجيهم عن موسى وأخيه ، فقدم الأمر ؛ لأنه هو المهم.

وأما ما في الكهف فإن الأمر ليس بهذه الأهمية ، فإنه أمر الفتية وأمر القوم واحد ، فكلهم مؤمنون ، وليس ثمة اختلاف في الأمر ، وإنما الاختلاف فيما يفعلون لهم بعد أن ماتوا ، فقال بعضهم: ﴿ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ ﴾ .

وقال الذين غلبوا على أمرهم: اتخذوا عليهم مسجداً.

وهذا الأمر بعد موت الفتية.

فالفرق كبير بين الأمرين؛ ولذا كثر الكلام في أمر موسى وفرعون وأسروه؛ بخلاف ما في الكهف، فناسب تقديم الأمر في آية طه على الظرف دون آية الكهف.

والله أعلم.

٧ ـ قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

فرسمت كلمة (شيء) بالألف بعد الشين في هذا الموضع، ولم ترسم نحو هذا الرسم في موضع آخر من القرآن الكريم، بل رسمت كلها من دون ألف على النحو المعروف (شيء).

فلم ذاك؟

الجواب:

من المعلوم أن هذا متعلق برسم المصحف، وخط المصحف لا يقاس عليه كما هو معلوم.

إلا أنه يمكن أن نقول: إن هذا الشيء المذكور بالآية ليس مقصوداً فعله في وقت التكلم، بل هو مقصود فعله بعد يوم من وقت التكلم، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ .

فهناك فاصل زمني بينهما.

فلما كان الأمر كذلك رسمت الكلمة بفاصل بين حروفها ، إشارة إلى الفاصل الزمني ، والله أعلم .

٨ ـ قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ .

سؤال:

١ ـ قال أولاً : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ .

وقال بعدها : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ بذكر نون الوقاية .

٢ ـ وقال في الآية الأولى : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ بذكر الرب .

وقال في الآية الأخرى ﴿ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ بذكر اسمه العلم .

فلم ذاك؟

الجواب:

أما ذكر نون الوقاية في ﴿ إِنَّنِيٓ ﴾ وعدم ذكرها في ﴿ إِنِّيٓ ﴾ فذلك لأن ﴿ إِنَّنِيٓ ﴾ آكد من ﴿ إِنِّيٓ ﴾ وذلك لذكر نون زيادة على ما في ﴿ إِنِّيٓ ﴾ والنون قد تأتي للتوكيد ، وقد بينا ذلك في كتابنا (معاني النحو)[1] .

ولاشك أن المقام في الآية الثانية يستدعي توكيداً أكثر مما في الآية الأولى ؛ لما ذكر من مقام التوحيد والتبليغ بالرسالة ، والأمر

---

(١) انظر : (معاني النحو) ج ١/ ٣٣٣ في باب (إن وأخواتها) .

بالعبادة ، وقدم ذلك بقوله : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ مما يدل على أهمية ما سيوحي إليه .

وأما اختيار الرب في الآية الأولى فإن ذلك لتسكين روعه ، فإن الرب هو المربي والقيم على الأمر ، وذلك يدل على الرعاية «فإن من شأن الرب الرفق بمربوبه»(١) .

ولعل ذلك أيضاً استجابة لترجيه حين خرج فاراً من مصر إلى مدين قائلاً : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢] فذكر ربه وأضافه إلى نفسه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى ﴾ ، فقال ربُه : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ فقد ذكر اسمه العلم الدال على ذاته سبحانه ، وذلك في مقام التوحيد والأمر بالعبادة ، فإن كلمة التوحيد إنما هي (لا إله إلا الله) بذكر اسمه العلم ، فناسب ذلك مقام التوحيد .

وفي مقام العبادة ناسب ذكر اسمه العلم أيضاً ، فإنه كما قيل إن كلمة (الله) أصلها (الإله) ومعناها : المعبود .

ثم إنه جمع بين كلمتي الرب والله ؛ ليدل على أن الرب هو الله سبحانه وليس غيره . فقد قال فرعون لقومه : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] فأعلمه أن ربه الله وليس ذاتًا أخرى .

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٩٦ .

٩ ـ قال تعالى في سورة طه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾.

وقال بعدها: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾.

سؤال:

قال في الآية الأولى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ فذكر أن القول له.

ولم يذكر (له) في الآية الأخرى، وإنما قال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، فلم يقل: (فقولا له).

فلم ذاك؟

الجواب:

إنه قال في الآية الأولى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ فإنه إذا لان؛ لان ملؤه وقومه، فيكونون أسمع له.

وأما الآية الأخرى، وهو قوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فإنه لم يذكر (له) ذلك أنه في مقام التبليغ العام له ولملئه وقومه، وليس له خاصة، فإنهما أُرسلا إلى فرعون وملئه وقومه كما قال ربنا سبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [يونس: ٧٥].

وقال: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١].

وقال: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢].

وقد آمن من آمن من قوم فرعون وملئه، فقد آمن شخص من ملأ

فرعون ، قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر : ٢٨] .

فلما كان المقام مقام التبليغ العام ، وليس خاصاً بفرعون ، أطلق القول ولم يقيده بفرعون ، فقال : ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ بخلاف الآية الأولى .

١٠ ـ قال تعالى في سورة الحج : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

وقال في سورة سبأ : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

سؤال:

كُتب الفعل ﴿ سَعَوْا۟ ﴾ في آية الحج بالألف بعد واو الجماعة .

ولم تكتب الألف بعد واو الجماعة في آية سبأ في كلمة ﴿ سَعَوْ ﴾ .

فلماذا؟

الجواب:

إن هذا من رسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه كما هو معلوم .

ومع ذلك فكأن هذا الاختلاف في الرسم إشارة إلى أمر بياني .

فإن آية الحج وقعت بعد ذكر أقوام كثيرة كافرة معاجزة ، فقد ذكر قبل الآية قوم نوح وعاداً وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ،

وذكر تكذيب موسى ، قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

ثم ذكر أن هناك قرى كثيرة أهلكها ربنا بظلمها فقال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

وأما آية سبأ فهي في سياق المكذبين بالساعة من الكافرين في زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر غيرهم من الأقوام ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

فالكلام في المكذبين بالساعة في زمن الرسول بدليل قوله سبحانه : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ فأمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ .

فلما كانت الأقوام في سياق آية الحج كثيرة متعاقبة ؛ رسمت كلمة ﴿ سَعَوْا۟ ﴾ بالألف إشارة إلى كثرة الساعين المعاجزين .

ولما كانت آية سبأ في جماعة واحدة لم ترسم الألف .

فالزيادة في رسم الكلمة كأنها إشارة إلى كثرة الساعين المعاجزين .

فناسب بين عدد حروف الكلمة وعدد المعاجزين ، والله أعلم .

١١ ـ قال تعالى في سورة النور (٣١) : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ . . . ﴾ .

سؤال:

لماذا استعمل (البعولة) في هذه الآية دون الأزواج؟

الجواب:

إن من معاني التبعل في اللغة التزين وحسن العشرة ، يقال : «تبعلت المرأة : أطاعت بعلها ، وتبعلت له : تزينت .

وامرأة حسنة التبعل ؛ إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له .

والتبعل : حسن العشرة»[1] .

فلما كان المقام مقام التزين ناسب ذكر البعولة ؛ لأن من معنى التبعل : التزين كما ذكرنا .

فناسب ذلك المقام الذي ورد فيه .

١٢ ـ قال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] .

وقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠] .

بذكر تاء التأنيث مع الفعل (كذّب) مع أنه مسند إلى (قوم) .

وقال : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ [الأنعام : ٦٦] .

فلم يذكر تاء التأنيث مع الفعل (كذب) مع أنه مسند إلى (قوم) أيضاً .
فما السبب؟

---

(١) لسان العرب (بعل) .

الجواب:

إن التأنيث يفيد التكثير كما مر بنا في أكثر من مناسبة.

وإن الأكثرين من قوم نوح وقوم لوط كذبوا المرسلين.

في حين أن الأكثرين من قوم الرسول آمنوا وأسلموا وانتشر الإسلام بهم.

فناسب ذكر التاء مع قوم نوح ولوط دون قوم الرسول.

١٣ ـ قال سبحانه في سورة ص: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾.

وقال في سورة الطور: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

سؤال:

ما الفرق بين آية ص ٩ وآية الطور ٣٧؟

الجواب:

إن ما ورد في سورة الطور أعم مما ورد في ص من أوجه عدة منها:

١ ـ أنه قال في آية ص: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾.

وقال في الطور: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾.

وآية الطور أعم؛ لأنها تشمل خزائن الرحمة وغيرها.

ولما قال: ﴿ ٱلْوَهَّابِ ﴾ في آية ص، ناسب ذكر الرحمة.

وقد اقترن ذكر الهبة مع الرحمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم،

قال تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [ص: ٤٣].

وناسب ذكر ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ قوله في الآية بعدها: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾.

فإن الذي يملك هو الذي يهب، وأما الذي لا يملك فماذا يهب؟ وربنا هو الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وليس المذكورون.

٢ ـ قال في آية ص: ﴿ الْعَزِيزِ ﴾.

وقال في آية الطور: ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾.

وما في الطور أعم، فالمصيطر هو العزيز وزيادة، فناسب العمومُ العمومَ.

٣ ـ قال في (ص): ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾.

وقال في الطور: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾.

والسلّم: هو المرقاة والدرج، وهو: «ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة، ثم جعل اسماً لكل مايتوصل به إلى شيء

رفيع ، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾»[١].

وقال الزجاج: «سمي به لأنه يسلك إلى حيث تريد»[٢].

ولما قال: ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾: دل ذلك على قربهم مما يريدون ، فهو آخر الارتقاء.

فكان ما في الطور أتم ؛ فإنه لم يذكر في (ص) مكاناً يرتقون إليه.

فإن الحدث يحصل ولو ارتقوا إلى أي مكان ، وإن لم يصلوا إلى مكان الاستماع ، فهو ارتقاء في الأسباب على أية حال.

فذكر في الطور ما هو أتم ، وهو ذكر الغرض من الارتقاء.

٤ ـ ومن طريف ما ورد في سياق كل من الآيتين أنه قال قبل آية (ص):

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾.

وقال قبل آية الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾.

فذكر في (ص) أنهم في شك من الذكر.

وقال في الطور: إنهم يقولون تقوّله ، بل ذكر أنهم لا يؤمنون ، وهو أبعد من الشك ، فهو الكفر وعدم الإيمان قطعاً.

فذكر في الطور ما هو أتم وأعم.

---

(١) مفردات الراغب (سلم).

(٢) تاج العروس (سلم).

فقد قال في الطور: ﴿ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ وهي خزائن الرحمة وزيادة.

وقال في (الطور): ﴿ أَمْ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ والمصيطر: هو العزيز وزيادة.

وقال في الطور: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ وهو الارتقاء في الأسباب وزيادة، وهو أتم.

وقال في الطور ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو الشك وزيادة، بل هو أبعد منه.

ومن طريف ذلك أيضاً أنه قال بعد هذه الآيات في ص: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [الآية: ١٧].

وقال بعد الآيات في الطور: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وما في الطور أعم، فإنه في (ص) أمره بالصبر على ما يقولون.

وأمره في الطور بالصبر لحكم ربه على العموم.

فكان الصبر في الطور أعم وأتم.

وهذه من المناسبات البديعة.

١٤ ـ في سورة ص ذكر صفة العبد لمن ورد في السورة من الأنبياء، فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٧].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ [ص: ٤١].

وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص: ٤٥].

إلا إسماعيل واليسع وذا الكفل فإنه قال فيهم: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ ولم يقل فيهم: (واذكر عبادنا) كما قال فيمن سواهم.

فلم ذاك؟

الجواب: من وجهين:

الوجه الأول: إن كل الذين ذكر صفة العبودية فيهم إنما تكلم عليهم وذكر أموراً تتعلق بهم.

فذكر عن نبي الله داود عشر آيات.

وذكر عن نبي الله سليمان إحدى عشرة آية.

وذكر عن نبي الله أيوب أربع آيات.

وذكر عن أنبياء الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ثلاث آيات.

وأما إسماعيل ومن بعده فذكرهم في آية واحدة.

فناسب التفصيلُ التفصيلَ، وناسب الإيجازُ الإيجازَ، فلم يذكر صفة العبودية.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن كل من ذكر له صفة العبد ذكر شيئاً من تفضله سبحانه عليه وما وهب له من الخير.

فقد ذكر في داود تسخير الجبال معه والطير، وأنه شد الله ملكه،

وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، فقال فيه : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ .

وقال في سليمان : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

وقال في أيوب : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ .

إلا إسماعيل واليسع وذا الكفل فلم يذكر هنا تفضلاً عليهم ، وإنما قال فيهم : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ .

ولم يقل : إنه أخلصهم ، ولا إنهم عنده من المصطفين الأخيار ، أي : اصطفاهم ربهم ، كما قال فيمن قبلهم .

فناسب ذكر صفة العبد لمن ذكر تفضله عليهم ، والله أعلم .

١٥ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الزمر :

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الآية : ٨] .

وقال في السورة نفسها:

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٤٩].

سؤال:

قال سبحانه في الآية الأولى: ﴿ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ... ﴾

بضمير الإفراد.

وقال في الآية الأخرى: ﴿ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾

بضمير الجمع.

فلم ذاك؟

الجواب:

إن الآية الأولى في مقام التوحيد ونفي الشرك، فقد قال في الآية: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾.

فناسب ذلك المجيء بالإفراد فقال: ﴿ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾.

حتى إن سياق الآية في نفي الشرك ابتداء من أول السورة، فقد قال في أول السورة: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾.

وقال بعدها: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾.

فذكر أنه الواحد القهار .

فناسب ذكر الإفراد من كل جهة .

وأما الآية الأخرى فهي في ادعاء الإنسان المذكور العلم .

فقد قال في الآية : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ ﴾ .

وقد نفى ربنا في الآية العلم عن أكثرهم فيها : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ .

فنفى العلم عن أكثرهم ؛ مما يدل على أن هناك من يعلم .

فلم يقتض ذلك الإفراد كما اقتضت الآية الأولى .

فإن هناك من خلق الله من يعلم ، وإن لم يكن ذلك كعلم الله ، فقد ذكر ربنا قبل الآية أنه سبحانه عالم الغيب والشهادة (٤٦) .
ولكن ليس لله ند على الإطلاق .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

١٦ ـ قال سبحانه في سورة المجادلة :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٢٢) ﴾ .

وقال في سورة البينة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾ .

* * *

سؤال:

قال سبحانه في سورة المجادلة: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

وقال في سورة البينة: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

فذكر في (البينة) أن ذلك (جزاؤهم) ولم يقل مثل ذلك في آية المجادلة.

وقال في سورة البينة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ولم يذكر الأبد في آية المجادلة.

فلم ذاك؟

الجواب:

الجزاء إنما هو للعمل، ولم يذكر عملاً في آية المجادلة، بل ذكر أنهم لايوادّون من حادّ الله ورسوله.

في حين قال في آية البينة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

فذكر الإيمان والعمل الصالح فقال (جزاؤهم)، والجزاء إنما يكون على العمل.

قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم : ٧] .

وقال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٠] .

وقال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٧] .

فناسب ذكر الجزاء في آية البينة .

ثم إنه زاد في (البينة) في الصفات والعمل ، فذكر الإيمان والعمل الصالح ، وذكر أنهم يخشون ربهم فقال : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

وذكر أنهم خير البرية .

فلما زاد في الصفات والعمل زاد في الجزاء .

فذكر أن جزاءهم جنات عدن ، ولم يذكر في آية المجادلة أنها جنات عدن ، بل ذكر أنه يدخلهم جنات .

وقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فذكر الأبد ، ولم يذكر الأبد في آية المجادلة .

فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

المصـــادر

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ـ المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ.

- البحر المحيط لأبي حيان ط١ سنة ١٣٢٨هـ ـ مطبعة السعادة بمصر.

- البرهان في متشابه القرآن ـ محمود بن حمزة الكرماني ط٢ سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ مصر ـ المنصورة.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن.

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية.

- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

- التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن.

- تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- تفسير أبي السعود .

- تفسير الثعالبي .

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر .

- التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية .

- درة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ط١ سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي .

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية .

- شرح التصريح على التوضيح - لخالد بن عبد الله الأزهري - دار إحياء الكتب العربية .

- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .

- على طريق التفسير البياني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان ، الأردن .

- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارون - المكتبة التوفيقية - مصر.

- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي ط٥ - شركة فن الطباعة - مصر.

- الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

- لسان العرب لابن منظور ، مصور على طبعة بولاق.

- لمسات بيانية - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - الأردن.

- المصباح المنير للفيومي - المطبعة العلمية - بيروت.

- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران.

- المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - القاهرة ١٣٨٦ هـ.

- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت.

ـ من أسرار البيان القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ عمان ـ الأردن .

ـ النشر في القراءات لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر .

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم البقاعي ـ دار الكتب العلمية –بيروت .

ـ النكت والعيون للماوردي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ـ نيل الأوطار للشوكاني ط٢ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط١ لسنة١٣٢٧ هـ ـ مطبعة السعادة بمصر .



فهرس الموضوعات

* * *